

الدين والتخليص للنفسى

ترجمة
فؤاد كامل

تأليف
أريك فروم

150

اهداءات ٢٠٠٣

اسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

150.19

5
فقر

الدين والتخليل للنفسى

ترجمة
فؤاد كامل

تأليف
أريك فروم

THE UNIVERSITY OF ALBANY
STATE UNIVERSITY OF NEW YORK

مكتبة غريب

٣٦ شارع كامل صدقي (البحالة)
تليفون : ٩٠٢١٠٧

١٠٥١٦٥

تصدير

يمكن أن يعد هذا الكتاب امتدادا للأفكار التي عبرت عنها في « الإنسان لنفسه » ، أعنى بحثا في سيكولوجية الأخلاق . ذلك أن الأخلاق والدين يرتبطان ارتباطا وثيقا ، وبالتالي يقع بينهما شيء من التداخل . بيد أنني حاولت في هذا الكتاب أن أركز على مشكلة الدين ، على حين كان التركيز في « الإنسان لنفسه » على الأخلاق وحدها .

والآراء التي يشملها التعبير في هذه الفصول لا تعد ممثله « للتصليل النفسى » على الإطلاق . فمن المحللين النفسانيين أشخاص متدينون يمارسون الشعائر الدينية ، ومنهم من يعد الاهتمام بالدين عرضا من أعراض الصراعات العاطفية التي لم تجد لها حلا . أما الموقف الذى أتخذه في هذا الكتاب فيختلف عن هؤلاء وأولئك ، وهو - على أكثر تقدير - ممثل لتفكير جماعة ثالثة من المحللين النفسانيين .

وأود هنا أن أعرب عن امتناني لمزوجتي ، لا على الاقتراحات العديدة التي أدرجتها مباشرة في هذه الفصول فحسب ، بل على ما يتعدى ذلك كثيرا ، على ما أدين به لذهنها الثاقب الطلعة الذى أسهم أعظم الأسهام في تطوري الخاص ، وبالتالي - بطريق غير مباشر - في أفكارى عن الدين .

الدين والتحليل النفسي

الفصل الأول

المشكلة

لم يقترب الانسان فى يوم ما من تحقيق أعز أمنائه مثلما اقترب اليوم .
فنشوقنا العلمية واذجازاتنا التقنية تمكننا من أن نرى رأى العين اليوم الذى
تمت فيه المائدة لكل من يشتهون الطعام . . . اليوم الذى يؤلف فيه الجنس
البشرى مجتمعا موحدا ، فلا يعود يعيش فى كيانات منفصلة . وقد اقتضى
الأمر آلاف السنين حتى تفتحت - على هذا النحو - ملكات الانسان الذهنية ،
وقدرته النامية على تنظيم المجتمع ، وتركيز طاقاته تركيزا هادفا . وهكذا
خلق الانسان عالما جديدا له قوانينه الخاصة ومصيره . فاذا نظر الى ما
أبدعه حق له أن يقول ان هذا الذى أبدعه شيء حسن .

ولكن . ماذا يستطيع أن يقول اذا نظر الى نفسه ؟ هل اقترب من تحقيق
حلم آخر للبشر هو كمال « الانسان » ؟ الانسان الذى يحب جاره ، ويحكم
بالمعدل ، وينطق بالصدق ، محققا ماهيته ، أى أن يكون صورة لئله ؟

اثارة السؤال تدعو الى الحرج ، لأن الاجابة واضحة وضوحا الينا .
تبينا خلقنا أشياء رائعة ، أخفقنا فى أن نجعل أنفسنا جديرين بهذا الجهد
الخارق . وحياتنا حياة لا يسودها الاخاء والسعادة والقناعة ، بل تجتاحها
الفوضى والروحية والضياع الذى يقترب اقترابا خطرا من حالة الجنون ، وهو
جنون لا يشبه الجنون الهستيرى الذى وجد فى العصر الموسيط ، بل جنون شبيه
بانفصام الشخصية (السكيزوفرنيا) ، ينعدم فيه الاتصال بالواقع الباطنى ،
وينشق فيه الفكر على الوجدان .

حسبنا أن نتأمل بعض الأخبار التى نطالعها فى الصحف صباح مساء
. . . اقتراح باقامة الصلوات فى الكنائس نتيجة لنقص المياه فى نيويورك ، على
حين يحاول « صناع المطر » اسقاطه بوسائل كيميائية . . . أخبار عن الأطباء

الطائرة توالى أكثر من عام كامل ، أناس ينكرون وجودها ، وآخرون يقولون
إنها حقيقية وأنها جزء من أسلحتنا الحربية أو من أسلحة دولة أجنبية ، وفريق
ثالث يزعمون جادين كل الجد أنها آلات أرسلها سكان كوكب آخر • وثمة
من يخبرنا أن مستقبل أمريكا لم يكن مشرقا كما هو الآن فى هذا النصف من
القرن العشرين ، على حين تحدث المناقشة - فى نفس الصفحة - عن احتمال
نشوب الحرب ، ويتجادل العلماء فيما إذا كانت الأسلحة الذرية ستؤدى إلى
دمار الكرة الأرضية ، أم لا •

ويسعى الناس إلى الكنائس للاستماع إلى مواظ تدعو إلى مبادئ
الحب والاحسان ، وهؤلاء الناس بالذات يعدون أنفسهم حمقى أو أسوأ من
ذلك إذا ترددوا فى بيع سلعة يعلمون أن المستهلك لا يقدر على ثمنها • ويتعلم
الأطفال فى مدارس الأحد أن الأمانة والفراسة والعناية بالروح ينبغى أن تكون
المبادئ الهادية فى الحياة ، على حين تعلمنا « الحياة » أن الاهتداء بهذه
المبادئ يجعلنا - على أحسن تقدير - حالمين غير واقعيين • ونحن نمك
أعجب إمكانيات الاتصال من صحافة وإذاعة وتليفزيون ، ومع ذلك نغذى
يومية على هراء لا يستسيغه ذكاء الأطفال لولا أنهم يرضعونه مع لبن
أمهاتهم • وترتفع أصوات عديدة تزعم أن طريقتنا فى الحياة تجعلنا سعداء •
ولكن كم عدد السعداء فى هذا العصر ؟ من الطريف أن نتذكر لقطة عابرة
نشرت فى مجلة « لايف » منذ حين لجماعة من الناس ينتظرون النور الأخضر
عند ناصية الشارع • والشيء الذى يلفت النظر فى هذه الصورة ويصدمه
فى أن واحد هو أن هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم جميعا إشارات الدهول
والخوف لم يشهدوا حادثا مروعا • بل كانوا مجرد مواطنين عاديين يمضون
إلى أعمالهم ، كما يشرح ذلك النص المنشور مع الصورة •

ونحن نتشبه باعتقادنا أننا سعداء ، ونلقن أطفالنا أننا أكثر تقدما
من أى جيل سبقنا ، وأننا فى نهاية المطاف لن نترك أمنية دون أن نحققها ،

وما من شيء سوف يستعصى على منالنا • والمظاهر جميعا تؤيد هذا الاعتقاد
الذى يدس فى نفوسنا دون انقطاع •

ولكن ، هل سيسمع أطفالنا صوتا يرشدهم الام يتجهون ، وما الهدف
الذى يعيشون من أجله ؟ انهم يشعرون على نحو ما - كما يشعر الناس
جميعا - أنه لابد للحياة من معنى - ولكن ما هو ؟ هل يجدونه فى المتناقضات ،
وفى الكلام المزدوج الدلالة ، وفى الاستسلام الساخر الذى يلتقون به عند
كل منعطف ؟ انهم مشوقون الى السعادة والحقيقة والعدالة والحب ، والى
موضوع للعبادة ، فهل نحن قادرون على اشباع شوقهم ؟

عاجزون نحن مثلهم • بل اننا لا نعرف الاجابة لأننا نسينا حتى أن نسأل
السؤال • ونزعم أن حياتنا قائمة على أساس متين ، ونتجاهل ظلال القلق
والهم والحيرة التى تغشانا فلا تريم •

يعتقد بعض الناس أن العودة الى الدين هى الاجابة ، لا بوصفها فعلا
من أفعال الايمان ، بل للهرب من شك لا سبيل الى احتماله ، وهؤلاء لايتخذون
هذا القرار تعبدا ، بل بحثا عن الأمن • والدارس للمشهد المعاصر الذى
لا تعنيه الكنيسة بل تعنيه « روح » الانسان يرى فى هذه الخطوة عرضا آخر
من أعراض اضطراب الأعصاب •

أما أولئك السذجن يحاولون العثور على حل بالمرجوع الى الدين
التقليدى ، فيتأثرون بالرأى الذى يدعو اليه رجال الدين فى أغلب الأحيان ،
وهو أن علينا أن نختار بين الدين وبين طريقة فى الحياة لا تحرص الا على
اشباع حاجاتنا الغريزية ، وراحتنا المادية ، وأننا اذا لم نعتقد فى الله ،
فلا مبرر لنا - ولا حق لنا - فى أن نؤمن بالروح ومطالبها • وهنا يبدو
المساواة والكهنة على أنهم الفئات المحترفة الوحيدة المهتمة بالروح ،
والمحدثون الوحيدون عن المثل العليا : الحب والحق والعدل •

بيد أن الأمر لم يكن دائما على هذا النحو من الناحية التاريخية . فعلى حين كان الكهنة فى بعض الحضارات ، كالحضارة المصرية القديمة ، هم « أدباء الروح » ، كان الفلاسفة يقومون بهذه الوظيفة - أو فى شطر منها - على الأقل - فى بعض الحضارات الأخرى كالحضارة اليونانية - ولم يكن سقراط أو أفلاطون أو أرسطو يزعمون أنهم يتحدثون باسم أى وحى . بل بسلطة العقل ، وبحرصهم على سعادة الانسان وتفتح روحه . وكانوا يهتمون بالانسان بوصفه غاية فى ذاته ، ويوصفه أكثر موضوعات البحث دلالة . وكانت أبحاثهم فى الفلسفة والأخلاق أبحاثا فى علم النفس فى ان واحد . هذا التقليد من تقاليد العصور القديمة استمر فى عصر النهضة . ومن الأشياء المميزة أن أول كتاب يستخدم لفظ « علم النفس » Psychologia عنوانا له يتخذ عنوانا فرعيا هو « هذا عن كمال الانسان Hoc es de Perfection Hominis (١) » . وفى عصر التنوير بلغ هذا التقليد ذروته . وانطلاقا من اعتقادهم فى عقل الانسان ، أكد فلاسفة عصر الاستنارة الذين كانوا فى الوقت نفسه دارسين لروح الانسان - أكدوا استقلال الانسان من أغلال السياسة ، وقيود التطير والجهل على حد سواء . كما علموا الانسان أن يحو ظروفيه المعيش التى تتطلب الإبقاء على الأوهام . وكان بحثهم النفسى يضرب بجذوره فى محاولة الكشف عن شروط السعادة الانسانية ، فكانوا يقولون ان السعادة لا يمكن أن تتحقق الا اذا حقق الانسان حريته الباطنة ، وحينئذ فحسب يمكن أن يكون صحيحا من الناحية العقلية . بيد أن النزعة العقلانية لعصر الاستنارة عانت فى الأجيال القليلة الأخيرة تغييرا حاسما . ذلك أن الانسان منتشيا بالرفاهية المادية الجديدة وب نجاحه فى السيطرة على الطبيعة ، لم يعد ينظر الى نفسه بوصفه الموضوع الأول فى الحياة وفى البحث النظرى . وانكمش

(١) رودلف جوكل Rudolf Joeckel - ١٩٥٠ .

العقل ، فبعد أن كان وسيلة للكشف عن الحقيقة والنفاد من السطح الى ماهية الظواهر ، أصبح مجرد أداة لاستخدام الأشياء والناس ، ولم يعد الانسان يعتقد أن فى قدرة العقل تأسيس صحة المعايير والأفكار الخاصة بالسلوك الانسانى .

هذا التغير الذى طرأ على المناخ ذهنى والعاطفى ترك أثرا عميقا على تطور « السيكولوجيا » بوصفها علما . فاذا غضضنا الطرف عن شخصيات استثنائية مثل نيتشه وكيركجور ، استطعنا أن نقول ان التقليد الذى كان يعد « السيكولوجيا » دراسة لروح الانسان دراسة تهتم بفضائله وسعادته - هذا التقليد نبذ تماما . وأصبح علم النفس الأكاديمى فى محاولته لمحاكاة العلوم الطبيعية والأساليب العملية فى الوزن والحساب - أصبح هذا العلم يعالج كل شىء ماعدا الروح ، اذ حاول هذا العلم أن يفهم مظاهر الانسان التى يمكن فحصها فى العمل ، وزعم أن الشعور ، وأحكام القيمة ، ومعرفة الخير والشر ، ما هى الا تصورات ميتافيزيقية ، تقع خارج مشكلات علم النفس . وكان اهتمامه ينصب فى أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمى مزعوم ، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الانسان الهامة . وهكذا أصبح علم النفس علما يفتقر الى موضوعه الرئيسى وهو : الروح ، وكان معنيا بالميكانيزمات ، وتكوينات ردود الفعل والغرائز ، دون أن يعنى بالظواهر الانسانية المميزة أشد التمييز للانسان : كالحب والعقل والشعور ، والقيم . وأنا أؤثر استخدام كلمة « روح » فى هذا الموضوع وخلال الفصول القادمة ، بدلا من كلمتى « نفس » Psyche أو « عقل » mind ، وذلك لما لها من تداعيات associations تتضمن هذه القوى الانسانية العليا .

ثم جاء « فرويد » ، الممثل العظيم الأخير لعقلانية عصر التنوير ، وأول من أوضح ما فى هذه النزعة من أوجه القصور . وتجاسر على أن يقطع أغانى الانتصار التى ينشدها العقل المجرى . وأثبت « فرويد » أن العقل هو أئمن

وأخص قوة تميز الانسان ، ولكنه عرضة لتأثير العواطف المشوِّدة له ، وفهم عواطف الانسان هو وحده الذى يمكن أن يحرر عقله لأداء وظيفته على نحو سليم . وكشف فرويد عن قوة العقل الانسانى وضعفه على السواء . وجعل من هذه الجملة : « الحقيقة هى التى ستحررك » المبدأ الهادى فى فن جديد للعلاج النفسى .

وظن « فرويد » فى بادىء الأمر أنه لا يعنى الا بأشكال معينة من المرض وعلاجها . ولكنه أدرك رويدا رويدا أنه توغل بعيدا الى ما وراء مجال الطب . وأنه استأنف تقليدا كان فيه علم النفس بوصفه دراسة لروح الانسان - أساسا نظريا لفن الحياة ، وتحقيق السعادة .

واستطاع منهج « فرويد » فى التحليل النفسى أن يجعل دراسة الروح دراسة دقيقة حميمة أمرا ممكنا . ولم يكن فى « معمل » المحلل النفسانى أية أجهزة أو أنابيب اختبار ، فما كان يستطيع أن يزن أو يحسب ما يعثر عليه ، ولكنه كان يكتسب عن طريق الأحلام ، والتخيلات ، وتداعى المعانى ، بصيرة تنفذ الى الرغبات المدفونة وضروب القلق التى تنتاب مرضاه . وفى « معمله » حيث لا يعتمد الا على الملاحظة والعقل وعلى خبرته الخاصة بوصفه كائنا انسانيا - اكتشف أن المرض العقلى لا يمكن أن يفهم بمنأى عن المشكلات الأخلاقية ، وأن مريضه عليل لأنه أهمل مطالب روحه . وليس المحلل النفسانى لاهوتيا أو فيلسوفا ، وهو لا يدعى الكفاءة فى هذه الميادين . ولكنه بوصفه طبيبا للروح يهتم بنفس المشكلات التى تهتم بها الفلسفة واللاهوت : ألا وهى روح الانسان وعلاجها .

فإذا عرفنا وظيفة المحلل النفسانى على هذا النحو ، ألفينا أن هناك جماعتين تحترقان مهنة الاهتمام بالروح هما القساوسة والمحللون النفسانيون ، فما هى العلاقة المتبادلة بينهما ؟ هل يحاول المحلل النفسانى احتلال ميدان القسيس ، وهل التعارض بينهما شئ محتوم ؟ أم هل هما حليفان يعملان من

أجل نفس الغايات، ويكمل أحدهما الآخر ويحاول أن يفهم ميدان زميله نظرياً وعملياً ؟

وقد عبر عن وجهة النظر الأولى كل من المحللين النفسانيين وممثلي الكنيسة على السواء . أما كتاب « فرويد » « مستقبل وهم » (٢) وكتاب « شين » Sheen « سكينه الروح » (٣) . فانهما يؤكدان على التعارض . وتمثل كتابات ك . ج . يونج C.G. Yung (٤) ، وراى ليبمان Rabbi Liebman محاولات للتوفيق بين التحليل النفسى والدين ، وهذه الحقيقة وهى أن عدداً كبيراً من رجال الدين يدرسون التحليل النفسى - تدل الى أى مدى تغلغل الاعتقاد فى مزج الدين بالتحليل النفسى فى مجال الشعائر الكهنوتية .

وإذا كنت أخذ على عاتقى مناقشة مشكلة الدين والتحليل النفسى من

The Future of an Illusion, Livright Publishing Corporation, 1949. (٢)

(٣) من الأمثلة الواضحة على الطريقة غير الموفقة التى يعالج بها الموضوع أحياناً فقرة أوردها المونسنيورشين فى كتابه « سكينه الروح » Peace of Soul (دارويتلس ، ١٩٤٩) ، اذ يقول : « عندما كتب فرويد مايلى ، فرض تحدياً لا عقلياً على نظرية : « سقط القناع : التحليل النفسى يؤدى الى انكار الله والمثل الأعلى الأخلاقى » (فرويد ، مستقبل وهم ، ص ٦٤) ويوحى المونسنيورشين بأن الفقرة التى اقتبسها تعبر عن رأى فرويد . فإذا تأمل المرء فقرة فرويد ، رأى أن الجملة المستشهد بها تاتى بعد هذا الكلام : فإذا تقدمت الآن بمثل هذه التقارير التى لا تبعث على الرضا ، فسيكون الناس على أتم استعداد لتحويل مشاعرهم التى بضمرونها لشخص الى التحليل النفسى . وسيقال أن المرء يستطيع أن يرى الآن الى أين يؤدى التحليل النفسى . سقط القناع ، وما هو (أى التحليل النفسى) يؤدى الى انكار الله والمثل الأعلى الأخلاقى ، كما افترضنا ذلك دائماً . وقد أدخل فى روعنا - لكى نظل بعيدين عن هذا الكشف - أن التحليل النفسى لا يتخذ ، ولا يمكن أن يتخذ - موقفاً فلسفياً . ومن الواضح أن فرويد يشير الى كيف سيهاجم الناس التحليل النفسى بدلا من أن يعبر عن رأيه الخاص . والتحريف يكمن فى أنه من المفترض ألا ينكر فرويد آلهه فحسب ، بل أن ينكر أيضاً مثلاً أخلاقياً أعلى . وإذا كان الشطر الأول صحيحاً ، ألا أن الشطر الثانى يناقض موقف فرويد . ومن المؤكد أن مونسنيورشين يمتاز باعتقاده فى أن انكار الآلهه يؤدى الى انكار المثل العليا الأخلاقية ، ولكن ليس من حقه أن يجعل المسألة تبدو على أنها رأى فرويد الخاص . ولو أن مونسنيورشين استشهد بالجملة استشهداً صحيحاً وبمعنى اصطلاحى ، بأن حذف عبارة « كما افترضنا دائماً » أو بالإشارة الى حذفها - لو أنه فعل ذلك ، ضلل القارئ بهذا اليسر .

Psychology and Religion (Yale University Press, 1938). (٤)

جديد فى هذه الفصول ، فذلك لكى أبين أن وضع الموضوعات موضع التعارض الذى لا سبيل الى التوفيق فيه أو المطالبة بتطابقها التام أمر باطل ، فمن الممكن أن تبرهن الدراسة الشاملة النزيهة على أن العلاقة بين الدين والتحليل النفسى معقدة الى درجة لا تسمح بأن تحشر فى أحد هذين الموقفين ايشارا للبساطة والراحة .

وأود أن أثبت فى هذه الصفحات أنه ليس صحيحا أن علينا التنازل عن اهتمامنا بالروح اذا كنا لا نقبل عقائد الدين ، ذلك أن المحلل النفسانى فى وضع يسمح له بدراسة الانسان عبر الدين وعبر نسق الرمز symbol systems اللادينية . وهو يرى أن المسألة ليست هى عودة الانسان الى الدين والايمان بالله ، بل هى أن يحيا فى الحب ويفكر فى الحقيقة . فاذا كان يفعل ذلك ، كانت نسق الرمز التى يستخدمها ذات أهمية ثانوية ، واذا لم يفعل ذلك ، لم تكن ذات أهمية على الاطلاق .

الفصل الثانى

فرويد ويونج

عالج « فرويد » مشكلة الدين والتحليل النفسى فى واحد من أعمق كتبه وألعبها « مستقبل وهم » • أما « يونج » الذى كان أول محلل نفسانى يفهم أن الأسطورة والأفكار الدينية ما هى إلا تعبيرات عن استبصارات عميقة - فقد تناول نفس الموضوع فى محاضرات تيرى Terry Lectures التى ألقاها سنة ١٩٣٧ ، ونشرت تحت عنوان : « علم النفس والدين » •

فإذا حاولت الآن أن أعرض موجزا سريعا لموقف كل من هذين المحللين ، فذلك لتحقيق غرض ذى ثلاث شعب :

١ - لأبين أين تقف مناقشة المشكلة فى الوقت الحاضر ، ولأحدد النقطة التى أريد أن أبدأ منها •

٢ - لأضع الأساس للفصول التالية بمناقشة بعض التصورات الأساسية التى استخدمها « فرويد » و « يونج » •

٣ - تصحيح الرأى الشائع بأن فرويد « ضد » ويونج « مع » الدين ، هذا التصحيح يسمح لنا برؤية المغالطة فى مثل هذه الآراء المسرفة فى التبسيط فى هذ الميدان ، ومناقشة ما يحيط بكلمتى « الدين » و « التحليل النفسى » من معان غامضة تدعو الى الالتباس •

ما موقف « فرويد » من الدين ، كما يعبر عنه فى كتابه : « مستقبل وهم » •

يرى « فرويد » أن الدين ينبع من عجز الانسان فى مواجهة قوى الطبيعة فى الخارج ، والقوى الغريزية داخل نفسه • وينشأ الدين فى مرحلة مبكرة

من التطور الانساني عندما لم يكن الانسان يستطيع أن يستخدم عقله بعد
فى التصدى لهذه القوى الخارجية والداخلية ، ولا يجد مفرا من كبته ،
أو التحايل عليها مستعينا بقوى عاطفية أخرى • وهكذا بدلا من التعامل مع
هذه القوى عن طريق العقل ، يتعامل معها « بعواطف مضادة » ، بقوى
وجدانية أخرى ، تكون وظيفتها هى الكبت أو التحكم فيما يعجز عن التعامل
معه عقليا •

وفى هذه العملية ، ينمى الانسان ما يطلق عليه « فرويد » اسم « الوهم » ،
وهذا الوهم تؤخذ مادته من تجربته الفردية الخاصة عندما كان طفلا • ان
يتذكر الانسان - حين يواجه قوى خطيرة لا سبيل الى السيطرة عليها أو فهمها
- يتذكر الانسان ويعود القهقري الى تجربة مر بها وهو طفل ، حينما كان
يشعر أن أباه يحميه ، أباه الذى يعتقد أنه أوتى حكمة عالية ، وقوة ، وهو
يستطيع أن يكسب حب أبيه وحمايته باطاعة أوامرهم ، وتجنب نواهيهم •

وهكذا يكون الدين - فى رأى « فرويد » - تكرارا لتجربة الطفل •
ويتعامل الانسان مع القوى المهددة له بنفس الطريقة التى تعلم بها وهو طفل أن
يتعامل مع شعوره بعدم الأمان ، وذلك بالاعتماد على والد يعجب به ويخافه •
ويقارن « فرويد » بين الدين وبين عصاب الانحصار *obsessional*
neuroses الذى نجده عند الأطفال ، والدين فى رأى عصاب جماعى
collective neurosis تسببه ظروف مماثلة للظروف التى تحدث عصاب
الطفولة •

ريحاول تحليل « فرويد » للجنود النفسية للدين أن يبين « لماذا » اتجه
الناس الى تكوين فكرة الاله ، بيد أن هذا التحليل يزعم المضى الى أبعد من تلك
الجنود النفسية ، إذ يدعى أن لا واقعية التصور الالوهى يثبتها عرض هذا

التصور بوصفه وهما قائما على رغبات الانسان (١) .

ويذهب فرويد الى أبعد من البرهنة على أن الدين « وهم » ، فيقول ان الدين « خطر » لأنه يميل الى تقديس مؤسسات انسانية سيئة تحالف معها على مر التاريخ ، وفضلا عن ذلك ، فان ما يقرم به الدين من تعليم الناس الاعتقاد فى وهم ، وتحريم التفكير النقدى يجعله مسئولا عما أصاب العقل من املاق (٢) . وجه هذا الاتهام ضد الكنيسة مفكرو عصر الاستنارة ، شأنه فى ذلك شأن الاتهام الأول . بيد أن هذا الاتهام الثانى عندما يرد فى سياق التفكير الفرويدى - أقوى مما كان فى القرن الثامن عشر . ان يستطيع فرويد أن يبين فى عمله التحليلى أن كبت التفكير النقدى فى نقطة معينة يؤدى الى افقار قدرة الشخص النقدية فى مجالات أخرى من الفكر ، ومن ثم يعوق قوة العقل . والاعتراض الثالث الذى يعترض به فرويد على الدين هو أنه ينزع « الأخلاقية » على أسس مهزوزة أشد الاهتزاز . فاذا كانت صحة المعايير الأخلاقية تستند على كونها أوامر الله ، فان مستقبل الأخلاق ينهض أو يتداعى مع الاعتقاد فى الله . ولما كان فرويد يفترض أن الاعتقاد الدينى فى سبيله الى الانحلال ، فانه مرغم على افتراض أن الارتباط المستمر بين الدين والأخلاق سوف يؤدى الى تحميل قيمنا الأخلاقية .

(١) يقرر فرويد نفسه أن أشباع الفكرة لرغبة ما لا يعنى بالضرورة أن هذه الفكرة باطلة . ولما كان المحللون قد انتهوا فى بعض الأحيان الى هذه النتيجة الخاطئة ، فاننى أود التأكيد على هذه الملاحظة التى أبدىها فرويد . صحيح أن هناك كثيرا من الأفكار الصادقة والكاذبة التى وحل اليها الانسان لأنه يريد أن تكون الفكرة صادقة . وربما تولدت معظم الكشوف العظيمة عن الاهتمام بالوصول الى شئ حقيقى . وعلى حين أن وجود مثل هذا الاهتمام قد يجعل الملاحظ مستربيا ، الا أنه لا يمكن أن يفند صحة تصور أو رأى . ومعيار الصدق لا يكمن فى التحليل النفسى لدافع ما ، بل فى فحص المبنية التى تؤيد أو تدحض افتراضا داخل الاطار المنطقى للافتراض .

(٢) يشير فرويد الى التضاد القائم بين ما يتصف به الطفل من نكاه ملاح ، وملاحظة من فقر العقل عند البالغ المتوسط (Dnkschwache) . وهو يفترض أن « طبيعة الانسان الحميمة » قد لا تكون لا عقلية كما تكون عندما يخضع الانسان لتأثير التعليم الملائعالية .

والأخطار التي يراها فرويد في الدين تجعل من الواضح أن مثله العليا الخاصة وقيمه هي نفسها الأشياء التي يعدها موضع تهديد من الدين : وأعني بهذه المثل والمقيم : العقل ، وتخفيف العذاب الانساني ، والأخلاقية • بيد أنه لا ينبغي علينا الاعتماد على الاستدلالات التي نستخلصها من نقد فرويد للدين ، فلقد عبر في صراحة تامة عن المعايير والمثل العليا التي يؤمن بها وهي : الحب الأخوي (Menchenliebe) والصدق ، والحرية ، فالعقل والحرية يعتمدان أحدهما على الآخر في رأى فرويد • فإذا تخلى الانسان عن وهمه في اله أبوى ، وإذا واجه وحدته وتفاهته في الكون ، فسيكون أشبه بالطفل الذي ترك بيت أبيه • غير أن غاية التطور الانساني هي أن يتغلب على هذا التثبيت الطفولي • وعلى الانسان أن يعلم نفسه لمواجهة الواقع • فإذا علم أنه لا يستطيع الاعتماد على شيء الا على قواه الخاصة ، فسيتعلم كيف يستخدمها استخداما صحيحا • والانسان الحر الذي حرر نفسه من نير السلطة - السلطة التي تهدد وتحمي - هو وحده الذي يستطيع استخدام قوة عقله ، وإدراك الكون ، ودوره فيه إدراكا موضوعيا ، دون وهم ، وبقدرة على التطور وعلى استخدام القدرات الكامنة فيه • ولن نجري على التفكير تفكيراً مستقلاً الا اذا نمونا وكففتنا عن أن نكون أطفالاً نعتمد على السلطة ونهابها ، والعكس صحيح ، فلن نحرر أنفسنا من قهر السلطة الا اذا تجاسرنا على التفكير • ومن الأمور الدالة في هذا السياق أن نذكر ما قرره فرويد من أن الشعور بالعجز مضاد للشعور الديني • وبالنظر الى هذه الحقيقة وهي أن كثيراً من الملاهوتيين - وكذلك يونج الى حد ما كما سنرى فيما بعد - يرون أن الشعور بالاعتماد والعجز هو لب التجربة الدينية • ومن ثم كان رأى فرويد هذا على أكبر جانب من الأهمية • وهو معبر ، حتى ولو كان ذلك بالتضمنين وحده - عن تصويره للتجربة الدينية ، أعني تجربة الاستقلال ووعي الانسان بقواه الخاصة • وسأحاول أن أثبت فيما بعد أن هذا الاختلاف يؤلف إحدى المشكلات الحاسمة في سيكولوجية الدين •

فإذا تحولنا الآن الى يونج ، رأيناه على عكس فرويد تماما فى آرائه عن

الدين •

يبدأ يونج بمناقشة المبادئ العامة لمنهجه • فعلى حين يتناول فرويد المشكلة رغم أنه ليس فيلسوفا محترفا من زاوية نفسية وفلسفية ، كما يتناولها وليم جيمس وديوى ، وماكمورى ، يقول يونج فى مستهل كتابه : « حصرت نفسى فى ملاحظة الظواهر ، وامتنعت عن استخدام أية اعتبارات ميتافيزيقية أو فلسفية (٣) • ثم يمضى شارحا بوصفه عالما نفسيا - كيف يستطيع تحليل الدين دون استخدام للاعتبارات الفلسفية • ويصف موقفه بأنه « ظاهرى » ، أى أنه معنى « بالأحداث والحوادث والتجارب ، أى بالحقائق الواقعة اذا شئنا استخدام كلمة واحدة • وما يتميز به هذا الموقف من الصدق هو أنه حقيقة واقعة لا حكم • فإذا تحدث علم النفس - مثلا - عن الدافع الى ولادة العذراء • لم يهتم الا بواقعة وجود مثل هذه الفكرة ، ولكنه لا يهتم بمسألة ما اذا كانت هذه الفكرة صادقة أو كاذبة بأى معنى آخر • فهى صادقة من الناحية النفسية مادامت موجودة • والوجود النفسى ذاتى اذا طرأت الفكرة لشخص واحد نحسب ، ولكنه موضوعى اذا كان ثمة مجتمع قد أقر هذه الفكرة - أى باجماع الآراء (Consensus gentium) (٤) •

وقبل أن أعرض تحليل يونج للدين ، يخيل الى أن فحصا نقديا لهذه المقدمات المنهجية أمر له ما يبرره • ذلك أن استخدام يونج لتصوير الصدق شئ لا يمكن الدفاع عنه • فهو يقرر أن « الصدق حقيقة واقعة fact ، وليس حكما » وأن « الفيل حقيقى لأنه موجود » (٥) • ولكنه ينسى أن الصدق يشير

Psychology and Religion, p. 2.

(٣) علم النفس والدين ، ص ٢ •

(٤) نفس المرجع ، ص ٣ •

(٥) نفس المرجع ، ص ٣ •

دائماً وبالضرورة الى حكم ، وأنه ليس وصفاً لظاهرة ندركها بحواسنا ، ونشير اليها بكلمة رمزية • ثم يقرر يونج أن « الفكرة صادقة سيكلوجيا مادامت موجودة » • بيد أن الفكرة « توجد » بغض النظر عما اذا كانت هذياناً أو تناظر حقيقة واقعة • ووجود فكرة ما لا يجعلها « صادقة » بأي معنى من المعانى • وحتى الطبيب النفساني لا يستطيع أن يمارس عمله ان لم يكن معنياً بصدق فكرة ما ، أعنى بعلاقتها بظاهرة تتجه الى وصفها • والا ما استطاع أن يتحدث عن هذيان أو عن جنون الهذاء • بيد أن منهج يونج في التنازل ليس متهاافتاً من وجهة نظر علم النفس المرضى فحسب ، بل انه يدعوا الى موقف يتسم بنزعة نسبية relativism ، وهذا الموقف رغم أنه يبدو على السطح مؤيداً للدين أكثر من موقف فرويد ، الا أنه في جوهره معارض للأديان . اليهودية والمسيحية والبوذية • فهذه الأديان تعد طموح الانسان الى الحقيقة واحداً من فضائل الانسان الرئيسية وواجباته ، وتصر على أن عقائدها سواء وصلنا اليها بالوحي أو بقوة العقل وحده خاضعة لمعيار المصدق •

ولا يغفل يونج عن رؤية الصعاب التي تحف بموقفه ، بيد أن الطريقة التي يحاول أن يتغلب بها على هذه الصعاب هي أيضاً متهاافتة لسوء الحظ • فهو يحاول أن يميز بين الوجود « الذاتى » و « الموضوعى » ، مع ما يكتنف هذين المصطلحين من مزالق شهيرة • ويبدو أن يونج يقصد أن الشيء الموضوعى أكثر صحة وصدقاً من مجرد الشيء الذاتى • ويعتمد معياره للاختلاف بين الذاتى والموضوعى على ما اذا كانت الفكرة تطراً لشخص واحد فحسب • أو أنها مما يقره مجتمع ما • ولكن ، ألم نشهد نحن أنفسنا الجنون الذى يصيب ملايين من الناس وجماعات بأكملها فى عصرنا الحاضر ؟ ألم نشهد أن ملايين الناس تضللهم عواطفهم اللاعقلية ، يمكنهم أن يعتقدوا فى أفكار لا تقل بطلاناً ولا عقلية عن نتاج فرد واحد ؟ فما معنى أن نقول عنهم أنهم

« موضوعيون » ؟ ان روح هذا المعيار للتمييز بين الذاتى والموضوعى تتسم بنفس النزعة النسبية التى علقت عليها آنفا . بل انها على الأخص نزعة نسبية اجتماعية تجعل من قبول المجتمع لفكرة معيارا لصحتها وصدقها و « موضوعيتها » (٦) .

وبعد أن يناقش يونج مقدماته المنهجية ، يعرض آراءه فى المشكلة الأساسية : ما الدين ؟ ما طبيعة التجربة الدينية ؟ ويأتى تعريفه مشتركا بينه وبين كثير من اللاهوتيين ، ويمكن تلخيصه بإيجاز فى هذه العبارة وهى أن جوهر التجربة الدينية هو الخضوع لقوى أعلى من أنفسنا ، ولكن من الأفضل أن نورد عبارة يونج مباشرة فهو يقول أن الدين هو « الملاحظة الدقيقة المتحرطة لما أسماه رودولف أوتو Rudolf Otto ببراعة « الخارق للطبيعة » numinosum ، أى وجود دينامى أو أثر لا يسببه فعل جزافى من أفعال الإرادة ، بل على العكس ، هذا الوجود يمسك ويتحكم فى الذات الانسانية التى هى دائما ضحيته أكثر من تكون خالقه » (٧) .

وبعد أن يعرف يونج التجربة الدينية بأنها شئ تسيطر عليه قوة خارجة عنا ، يتقدم لتفسير تصور اللاشعور بوصفه تصورا دينيا . فهو يرى أن اللاشعور لا يمكن أن يكون مجرد شطر من العقل الفردى ، بل انه قوة تند عن سيطرتنا ، وتؤثر على عقولنا . و « حقيقة أنك تدرك صوت (اللاشعور) فى أحلامك ، لا تثبت شيئا على الإطلاق ، لأنك تستطيع أيضا أن تسمع الأصوات فى الشارع ، ومع هذا فانك لا تفسر هذه الأصوات على أنها أصواتك - شمة

(٦) راجع مناقشة الكلى فى مضاد الأخلاق المتأصلة اجتماعيا لى كتاب اريك فروم .
والانسان لنفسه » (رينهارت وشركاه - ١٩٤٧ . ص ٢٣٧ - ٢٤٤ .

(٧) يونج : علم النفس والدين ، ص ٤ .

شرط واحد هو الذى يجعلك - بصورة مشروعة - تنسب صوتا اليك ، وهو حين تفترض أن شخصيتك الواعية جزء من كل ، أو أنها دائرة صغيرة ، نذرها دائرة أوسع . والموظف الصغير الذى يعمل فى أحد المصارف يستخدم نفس هذا الامتياز حين يشير الى مبنى المصرف الذى يعمل فيه لصديق له يفرجه على المدينة قائلا : « وهذا مصرفى » (٨) .

ويترقب على تعريف يونج للدين والملاشعور أن يحل بالضرورة الى هذه النتيجة وهى أنه بالنظر الى طبيعة العقل اللاواعى ، يكون تأثير الملاشعور علينا « ظاهرة دينية أساسية » (٩) . ويلزم عن ذلك أن العقيدة الدينية والحلم كلاهما ظاهرة دينية ، لأن كلا منهما تعبير عن استيلاء قوة خارجية علينا . ولا حاجة بنا الى القول بأن الجنون فى منطق المتفكير الذى يعتنقه يونج ينبغى أن يسمى ظاهرة دينية بلا منازع .

فهل يشهد - فحسنا لموقف كل من فرويد ويونج من الدين الرأى الشائع بأن فرويد عدو للدين ويونج صديق له ؟ ان المقارنة الوجيزة بين آرائهما تبين أن هذا الافتراض تبسيط مفرط مضلل .

يعتقد فرويد أن هدف التطور الانسانى هو تحقيق هذه المثل العليا : العفة (العقل ، الحقيقة ، اللوغوس) ، والحب الأخوى ، وتخفيف الآلام ، والاستقلال ، والمسئولية وهذه المثل العليا تؤلف الملبأ الأخلاقى للأديان المعظمى جميعا . تلك الأديان التى تقوم عليها الحضارة الشرقية والغربية ، وتعاليم كونفوشيوس ولاوتسى ، وبوذا ، والأنبياء كافة . وعلى حين تقوم بغض المزوق فى التركيز على أشياء بعينها فى هذه التعاليم ، فمثلا يركز بوذا على

(٨) نفس المرجع ، ص ٤٧ .

(٩) نفس المرجع ، ص ٤٦ .

تخفيف الآلام ، ويركز الأنبياء على المعرفة والعدالة ، ويركز المسيح على الحب الأخوى ٠٠٠ وهلم جرا ، على حين تقوم هذه الفروق بجدر بنا ان نذكر الى أى مدى يتفق هؤلاء المعلمون الدينيون اتفاقا جوهريا فيما بينهم على هدف التطور الانسانى ، وعلى المعايير التى ينبغى أن يهتدى بها الانسان . ويتحدث فرويد باسم المجرم الأخلاقى للدين وينتقد فى الدين الجوانب الالهية الفائقة على الطبيعة لأنها تحول دون التحقيق الكامل لهذه الأهداف الأخلاقية . ويفسر التصورات الالهية الفائقة على الطبيعة على أنها مراحل فى التطور الانسانى كانت ضرورية ذات يوم وباعثة على التقدم ، ولكنها لم تعد الآن ضرورية . بل هى فى الواقع حائل دون مزيد من النمو . وعلى هذا فان القول بأن فرويد « ضد » الدين قول مضلل اللهم الا اذا حددنا تحديدا قاطعا « نوع » الدين أو مظاهر الدين التى يوجه اليها نقده ، والمظاهر التى يؤيدها .

أما عند يونج ، فان الخبرة الدينية تتسم بضرب خاص من الخبرة العاطفية هى الخضوع لقوة أعلى ، سواء أطلقنا على هذه القوة اسم الاله أو اللاشعور ، وليس من شك أن هذا تحديد صادق لنمط معين من الخبرة الدينية ، نهى فى الأديان المسيحية مثلا ، تعد لب تعاليم لوثر أو كالفن - على حين أنها تتناقض مع نمط آخر من الخبرة الدينية كتلك التى تمثلها البوذية على سبيل المثال . وأيا كان الأمر ، فان تصور يونج فى الدين يناقض - بخلافه النسبى فى نظريته الى الحقيقة - البوذية ، واليهودية والمسيحية . وفى هذه الأديان الثلاثة - يعد التزام الانسان بالبحث عن الحقيقة مسلما متكاملة . ويقف سؤال بيلاطس الساخر : « ما الحقيقة ؟ » رمزا على موقف معاد للدين لا من وجهة النظر المسيحية فحسب ، بل من وجهة نظر الأديان الكبرى جميعا على السواء .

فاذا أردنا تلخيص موقف كل من فرويد ويونج على التوالى ، قلنا ان فرويد يعارض الدين باسم الأخلاق ، وهو موقف نستطيع أن نصفه بأنه

« دينى » • على حين يهبط يونج بالدين فيحيله الى ظاهرة نفسية ، ويرفع
اللاشعور فى الوقت نفسه فيجعله ظاهرة دينية (١٠) •

(١٠) من الطريف أن نذكر أن موقف يونج فى كتابه : « علم النفس والدين » قد أرمض به
وايم جيمس على أنحاء شتى ، على حين يتشابه موقف فرويد فى نقاطه الجوهرية مع الموقف
الذى اتخذته جون ديوى • ويصف وايم جيمس هذا الموقف الدينى بأنه « يتسم بالمحجوز والتضحية
فى أن واحد ، ويجد الفرد نفسه مدنوا الى اتخاذ نحو ما يدرك أنه الإلإى • » (صنف الخبرة
الدينية (المكتبة الحديثة) صفحة ٥١ •) وهو يقارن ، مثلما يفعل يونج - اللاشعور بتصوير
الذاتى للاله • ويقول : « وفى الوقت نفسه يجد ما يقوله اللاهوتى من أن الانسان الدينى
تدركه قوة خارجية - وجد هذا القول ما يبرره ، ذلك أنه من خصائص الغزوات المصادرة عن
عاشية ما تحت الشعور أن تتخذ مظاهر موضوعية ، وأن توحى الى « الذات » بوجود سيطرة
خارجية • » (نفس المرجع المذكور صفحة ٥٢) وفى هذه الصلة بين اللا شعور (أو ما تحت
الشعور subconscious فى مصطلح جيمس) والاله ، يرى جيمس حلقة الوصل بين الدين
وعلم النفس •

أما جون ديوى فينرى بين الدين والخبرة الدينية ، فهو يرى أن معتقدات الدين النافذة على
الطبيعة قد أضعت من موقف الانسان الدينى وأرهنته ، ويقول : « أن التعارض القائم بين
المقيم الدينية كما تصورنا وبين الدين لا سبيل الى رفعه • ولأن تحرير هذه المقيم من الأدمية
يسكن ، فإن التوحيد بينهما وبين عقائد الأديان ومعتقداتها أمر ينبغي فحصه • » (ايممان
منير ، مطبعة جامعة بيل ، ١٩٣٤) ، صفحة ٢٨ •) ويقرر كما قرر فرويد : « أن الناس لم
يتعدوا قط القوى التى يملكونها لنشر الخير تمام الاستخدام ، وذلك لأنهم انتظروا قوة
خارجية عنهم وعن الطبيعة لتؤدى عنهم العمل الذى تقع عليهم مسئولية أدائه • » (المرجع
المذكور ، صفحة ٤٦) وارجع أيضا الى موقف جون ماكمارى John Macmurray
فى كتابه : « بناء الخبرة الدينية The Structure of Religions Experience
(مطبعة جامعة بيل ، ١٩٣٦) •

وهو يؤكد الاستمرار بين العقلى والملاعقل ، وبين العواطف الدينية الرقيقة ، والعواطف
الدينية الرديئة • وفى مضاد الموقف النسبى الذى يتخذه يونج ، يقول : « ليس من الممكن تبرير
أى نشاط تأملى إلا من حيث وصوله الى الحقيقة والصدق ، وتجنبه للخطأ والباطل • » (المرجع
المذكور ، صفحة ٥٤)

الفصل الثالث

تحليل لأنماط من الخبرة الدينية

تصطدم أبة مناقشة للدين بعقبة كأداء من حيث المصطلح . فبينما نعرف أنه قد وجدت - وما زالت - أديان كثيرة خارج التوحيد ، فإننا نربط مع ذلك تصور الدين بمذهب يدور حول الاله والقوى الفائقة على الطبيعة ، كما نميل الى اعتبار المديانة التوحيدية اطارا لفهم جميع الأديان الأخرى وتقويمها . وهكذا يصبح من المشكوك فيه أن نطلق بحق اسم الأديان على أديان لا اله فيها كالبوذية والطاوية والكونفوشيوسية ، وثمة مذاهب دنيوية كمذهب التسلط المعاصر authoritarianism - لا نطلق عليها اسم الأديان . وان كانت تستحق هذا الاسم من الناحية النفسية . والأمر ببساطة هو أننا لا نملك كلمة تشير بها الى الدين بوصفه ظاهرة انسانية عامة بحيث لا يتسلل تداع ما بنمط معين من الدين ، فيلون تصورنا . ونظرا لافتقارنا لمثل هذه الكلمة ، فسنستخدم كلمة دين في هذه الفصول ، ولكنى أريد أن يكون واضحا فى الأذهان منذ البداية أننى أفهم الدين بأنه أى مذهب للفكر والعمل تشترك فيه جماعة ما ، ويعطى للفرد اطارا للتوجيه وموضوعا للعبادة .

ولا توجد - بكل تأكيد - حضارة فى الماضى ، ويبسود أنه لا يمكن أن توجد حضارة فى المستقبل - دون أن يكون لها دين بهذا المعنى الموسع الذى يذهب اليه تعريفنا . ومهما يكن من أمر ، فلسنا بحاجة الى الموشغ عند هذه العبارة الوصفية وحدها . ذلك أن دراسة الانسان تسمح لنا بادراك أن الحاجة الى مذهب مشترك للتوجيه والى موضوع للعبادة - هذه الحاجة تضرب بجذورها عميقا فى أحوال الوجود الانسانى . وقد حاولت فى كتابى « الانسان لنفسه » Man for himself تحليل طبيعة هذه الحاجة ، وأنا أستشهد بنا ورد فيه :

« المرعى بالذات ، والعقل ، والتخيل - كل هذه الملصقات قد مزقت »
« الانسجام » الذى اتسم به الوجود الحيوانى • وجعل ظهورها من الانسان
شيئا شاذًا ، خارقا فى الكون ، فهو جزء من الطبيعة ، خاضع لقوانينها
الفيزيائية . عاجز عن تغيير هذه القوانين ، ولكنه مع ذلك يتجاوز بقية
الطبيعة • وهن بمعزل عنها على حين أنه جزء منها . انه بلا مأوى ، ولكنه
منزل الى المأوى الذى يشترك فيه مع الكائنات جميعا • قذف به الى العالم
فى مكان وزمان عرضيين ، وهو مرغم على الخروج منه على سبيل المصادفة
أيضا • ولما كان الانسان فى وعى بنفسه ، فانه يدرك عجزه والقيود التى تحد
وجوده • وهو يتنبأ بنهايته : وهى الموت • ولا يتحرر أبدا من ثنائية وجوده ،
ولا يستطيع أن يتخلص من عقله حتى لو أراد ذلك ، كما لا يستطيع أن يتخلص
من جسده مادام حيا - وجسده يدفعه الى أن يريد الحياة •

« وإذا كان العقل نعمة الانسان ، فهو نقمته أيضا ، اذ يدفعه الى القيام
- دائما وأبدا - بمهمة حل ثنائية لا سبيل الى حلها • والوجود الانسانى
مختلف من هذه الجهة عن سائر الكائنات الأخرى ، فهو حالة من اختلال
التوازن الدائم الذى لا محيد عنه • وحياة الانسان لا يمكن أن « تعيش »
بتكرار نموذج النوع الانسانى ، بل عليه « هو » أن يعيش حياته • والانسان
هو الحيوان الوحيد الذى يمكن أن ينتابه « السأم » و « السخط » ، وأن يشعر
بأنه مطرود من الفردوس • والانسان هو الحيوان الوحيد الذى يعد وجوده
مشكلة بالنسبة اليه ، مشكلة عليه أن يحلها ، ولا يستطيع منها فكاكا • وهو
لا يستطيع أن يرجع الى الحالة السابقة على الانسانية ، حالة الانسجام مع
الطبيعة ، بل ينبغى عليه أن يتقدم مطورا عقله حتى يصبح سيدا للطبيعة ،
وسيدا لنفسه •

« وظهور العقل أنشأ ثنائية داخل الانسان ، تدفعه الى السعى دون
ترقب عن حلول جديدة • ودينامية تاريخه باطنة فى وجود عقله الذى يدفعه

الى التطور ، ومن خلاله ، يبدع عالما خاصا به يستطيع أن يشعر فيه بالطمأنينة مع نفسه ، ومع غيره من البشر . وكل مرحلة يبلغها ، تتركه ساخطا حائرا ، وهذه الحيرة نفسها تدفعه صوب حلول جديدة . فلا وجود « لدافع فطري نحو التقدم » في الانسان ، والتناقض في وجوده هو الذى يجعله يسير قدما فى الطريق الذى ابتدأه . وعندما أضاع الانسان المفردوس ، وفقد الاتحاد مع الطبيعة ، أصبح المتجول الأبدى (أوديسيوس ، أوديب ، ابراهيم . فاوست) ، وهو مجبر على السير قدما الى الأمام ، باذلا ذلك الجهد الدائم ليجعل المجهول معروفا بأن يملأ ثغرات معرفته بالأجوبة . وعليه أن يقسم لنفسه حسابا عن نفسه ، وعن معنى وجوده . وهو مسوق للتغلب على هذا التصدع الداخلى ، يعذبه المشوق الى « المطلق » ، وإلى ضرب آخر من الانسجام يستطيع أن يرفع اللعنة التى فصلته عن الطبيعة ، وعن اخوانه البشر ، وعن نفسه » .

« وينشئ المتنافر (انعدام الانسجام) فى وجود الانسان حاجات تتجاوز حاجات أصله الحيوانى تجاوزا بعيدا . وينتج عن هذه الحاجات دافع قادر لاستعادة الوحدة والتوازن بينه وبين بقية الطبيعة . ويحاول استعادة هذه الوحدة والتوازن فى الفكر بأىء الأمر ، وذلك بتشبيد صورة ذهنية جامعة all-inclusive للعالم تكون بمثابة اطار للإشارة يستطيع منه أن يستمد الاجابة على السؤال الخاص بموقفه وما ينبغى عليه أن يفعله . بيد أن مثل هذه المذاهب الفكرية ليست كافية . فلو كان الانسان عقلا مجردا عن الجسم لبلغ غايته بمذهب فكرى شامل . ولكن مادام الانسان كيانا له جسم وعقل فلا مناص من أن يواجه ثنائية وجوده لا بالتفكير فحسب ، بل بعملية الحياة أيضا ، وبمشاعره وأفعاله . وعليه أن يسعى جاهدا الى تجربة الاتحاد والوحدة فى كل مجالات وجوده لكى يصل الى توازن جديد . ومن ثم فإن كل مذهب مرض من التوجيه لا يتضمن عناصر عقلية فحسب ، بل يتضمن أيضا عناصر الشعور والاحساس ، على أن تتحقق هذه العناصر فى الفعل فى مجالات الجهد

الإنسانى جميعا والتفانى فى هدف أو فكرة أو قوة تعلق على الإنسان كالاله -
تعبير عن هذه الحاجة الى الاكتمال فى عملية الحياة » •

« ولأن الحاجة الى مذهب للتوجيه ولعبادة جزء جوهرى من الوجود
الإنسانى ، يمكننا أن نفهم عرامة هذه الحاجة • والحق أن لا وجود فى الإنسان
لمصدر للطاقة أقوى من هذا المصدر • فليس الإنسان حرا فى اختيار أن تكون
له • مثل عليا » أو لا تكون له ، ولكنه حر فى الاختيار بين ضروب المثل العليا
المختلفة ، بين أن يكرس نفسه لعبادة القوة والتدمير أو العقل والحب • والناس
جميعا « مثاليون » ، وهم يتطلعون الى شئ وراء الحصول على الاشباع
الجسدى • ولكنهم يختلفون فى أنواع المثل العليا التى يؤمنون بها • وربما
كانت أفضل ، بل أشد تحقيقات عقل الإنسان الشيطانية أيضا تعبيرات لا عن
جسده ، وإنما عن « مثاليته » ، عن روحه • ومن ثم كان الرأى النسبى المقاتل
بأن اعتناق مثل أعلى ، أو الشعور بعاطفة دينية شئ قيم فى حد ذاته - كان
هذا الرأى خطرا ومخطئا • إذ يجب أن نفهم كل مثل أعلى ، بما فى ذلك المثل
العليا التى تظهر فى الأيديولوجيات الدنيوية على أنها تعبيرات عن نفس الحاجة
الإنسانية ، وعائنا أن نحكم عليها وفق ما تنطوى عليه من حقيقة ، وتبعاً
للمدى الذى تفضى اليه فى كشفها عن قوى الإنسان ، وللدرجة التى تكون فيها
تلبية حقيقية لحاجة الإنسان الى التوازن والانسجام فى عالمه (١) •

وما قلته عن نزعة الإنسان المثالية يصدق أيضا على حاجته الدينية •
فلا وجود لإنسان بغير حاجة دينية ، حاجة الى أن يكون له اطار للتوجيه
وموضوع للعبادة ، بيد أن هذا القول لا يخبرنا بشئ عن سياق خاص تتجلى
فيه هذه الحاجة الدينية ، فقد يعبد الإنسان الحيوانات ، أو الأشجار ،
أو الأصنام من الذهب أو الحجارة ، أو الها غير منظور ، أو إنسانا مقدسا ،

(١) « الإنسان لنفسه » ، ص ٤٠ - ٤١ ، ٤٦ - ٤٧ ، ٤٩ - ٥٠ •

أو زعماء شيطانيين ، وربما عبد أسلافه ، أو أمته ، أو طبقته أو حزبه ، أو المال ، أو النجاح ، وقد يؤدي به دينه إلى تطوير روح الدمار أو الحب ، إلى التسلط أو الإخاء ، أو ربما ضاعف من قوة عقله أو أصابها بالشلل ، وقد يدرك أن مذهبه حذهب ديني ، يختلف عن المذاهب الدنيوية ، أو قد يظن أنه لا يملك ديناً ، وأن تكريس نفسه لأهداف دنيوية مزعومة كالقوة أو المال أو النجاح - ليس شيئاً آخر سوى اهتمامه بالعمل والنافع ، والمسألة ليست « ديناً أو لا دين » بل « أى نوع من الدين » ، هل هو من النوع الذى يساعد على تطور الإنسان وعلى الكشف عن قواه الانسانية الخاصة به كإنسان ، أم هو من النوع الذى يصيب هذه القوى بالشلل ؟

والعجيب أن اهتمامات رجل الدين المتقانى ، واهتمامات عالم النفس ، واحدة بعينها فى هذا المجال . فرجل اللاهوت يهتم اهتماماً شديداً بالمعتقدات الخاصة بدين ما ، بدينه ودين الآخرين ، لأن ما يهمه هو حقيقة اعتقاده فى مقابل اعتقاد الآخرين . وكذلك ينبغي على عالم النفس أن يهتم اهتماماً شديداً بالمضامين الخاصة بالدين ، لأن ما يهمه هو الموقف الانسانى الذى يعبر عنه الدين ، وما نوع تأثيره على الانسان ، وهل هذا التأثير حسن أم سيئ على تنمية قوى الانسان . وهو لا يهتم بتحليل « الجذور النفسية » للأديان المختلفة فحسب ، بل « بقيمتها » أيضاً .

وتبدو لى هذه الدعوى القائلة بأن الحاجة إلى اطار للتوجيه وموضوع للعبادة تضرب بجذورها فى أحوال الوجود الانسانى - تبدو لى صحيحة تؤكد صحتها تأكيداً وفيراً حقيقة ظهور الدين فى التاريخ على نطاق شامل . وهذه النقطة قد قررت وفصلت على أيدي رجال اللاهوت ، وعلماء النفس ، وعلماء الانسان ، ولست بحاجة إلى مناقشتها أكثر من ذلك . كل ما أريده هو أنه فى تقرير هذه النقطة انغمس أنصار الدين التقليدى فى أغلب الأحيان فى تفكير واضح البطلان . فانهم حين يبدأون بتعريف واسع للدين بحيث يشمل

كل ظاهرة دينية ممكنة ، يظل تصورهم مرتبطا بالديانة التوحيدية ، ومن ثم فانهم ينظرون الى كل الأشكال غير الموحدة nonmonotheistic forms على أنها سوابق أو انحرافات عن الدين « الحقيقى » ، وينتهى بهم الأمر الى البرهنة على أن الاعتقاد فى الاله بالمعنى الذى يراه التراث الدينى الغربى - هذا الاعتقاد فطرى فى تركيب الانسان .

أما المحلل النفسانى الذى يتخذ من المريض « معملا » له ، والذى يعد ملاحظا مشاركا لأفكار شخص آخر ومشاعره ، فانه قادر على اضافة برهان آخر على حقيقة أن الحاجة الى اطار للتوجيه وموضوع للعبادة متأصلة فى الانسان . وفى دراسته لأنواع العصاب يكتشف أنه يدرس الدين . وكان فرويد هو الذى رأى العلاقة بين العصاب والدين ، ولكنه حين فسر الدين على أنه العصاب الجماعى لطفولة الجنس البشرى ، كان من الممكن عكس هذا القول أيضا ، اذ نستطيع أن نفسر العصاب على أنه شكل خاص من أشكال المدين أو على نحو أكثر تخصيصا - نكوصا الى الأشكال البدائية للمدين يتصارع مع النماذج الرسمية المعترف بها من الفكر الدينى .

ويستطيع المرء أن ينظر الى العصاب من وجهين : فاما أن يركز الرؤية على الظواهر العصابية نفسها ، أى على الأعراض والمصاعب الأخرى الخاصة بالمعيشة التى يحدثها العصاب . أما الوجه الثانى فلا يعنى بالايجابى من حيث هو كذلك ، أعنى بالعصاب ، بل بالسلبى ، أعنى باخفاق الفرد العصابى فى تحقيق الأهداف الأساسية من الوجود الانسانى ، كالاستقلال والقدرة على أن يكون منتجاً ، وعلى أن يحب ويفكر . وكل من أخفق فى بلوغ النضج والتكامل يصيبه هذا النوع من العصاب أو ذاك . فهو « لا يعيش » وكفى ، غير عابىء بفشله ، قانعا بالطعام والشراب والنوم ، راضيا بممارسة الجنس ومزاولة عمله ، فلو كان الأمر على هذا النحو لكان لدينا بالتأكيد برهان على أن الموقف الدينى - وان يكن أمرا غير مرغوبا فيه - الا أنه ليس جزءا أصيلا

فى الطبيعة الانسانية • بيد أن دراسة الانسان تبين أن الأمر على خلاف ذلك •
فلو أن شخصا لم ينجح فى ادماج طاقاته فى اتجاه ذاته العليا ، فانه يسيرها
فى اتجاه الأهداف الأدنى ، فاذا لم تكن لديه صورة عن العالم وموقفه فيه
تكون قريبة من الحقيقة ، فانه سوف يخلف صورة وهمية يتشبث بها بنفس
الاصرار الذى يؤمن به رجل الدين بمعتقداته • والحق أن « الانسان لا يعيش
بالمهذب وحده » • وليس لديه الا اختيار بين الأشكال الحسنة أو المريئة ،
السامية أو الدنيئة ، المرضية أو الهدامة ، من الأديان والفلسفات •

فما هو الموقف الدينى فى المجتمع الغربى المعاصر ؟ انه يشبه - على
نحو غريب - الصورة التى يخرج بها الأنثروبولوجى من دراسة دين الهنود
فى أمريكا الشمالية • فقد دخلوا الديانة المسيحية ، بيد أن أديانهم القديمة
السابقة على المسيحية لم تستأصل من نفوسهم • وما المسيحية غير للاء
وضع فوق هذا الدين القديم ، واختلط به على أنحاء شتى • وفى حضارتنا
نفسها لا يخرج الدين التوحيدي ، بل والفلسفات المحددة والملاذرية أيضا - عن
كونها طبقة رقيقة من الطلاء وضعت فوق أديان أشد امعانا فى « البدائية »
من أديان الهنود الحمر ، بل لكونها وثنية صرفة - فانه أشد تنافرا مع تعاليم
التوحيد الجوهريّة • ومن أشكال الوثنية الحديثة شكل جماعى متغلغل نجده
فى عبادة السلطان والنجاح ، وفى سلطة السوق ، ولكننا نجد الى جانب هذه
الأشكال الجماعية شيئا آخر • فلو أننا خدشنا سطح الانسان الحديث لاكتشفنا
عددا من الأشكال الفردية البدائية للدين • وكثير من هذه الأشكال تسمى
أعراض عصابية ، بيد أن المرء يستطيع أيضا أن يسميها - دون أن يجانب
الحق - بأسمائها الدينية : عبادة الأسلاف ، الطوطمية ، الفتشية ، الطقوسية ،
عبادة الطهارة ، وهكذا دواليك •

فهل نجد فعلا عبادة السلف ؟ من المؤكد أن عبادة السلف هى واحدة
من أكثر العبادات البدائية انتشارا فى مجتمعنا ، ولا تتغير صورتها اذا
أسميناها كما يسميها الطبيب النفسانى ، تثبيتا عصابيا *neurotic fixation*

للأب أو الأم • فلننظر فى حالة من حالات عبادة السلف • امرأة جميلة ذات موهبة وقيرة فى فن الرسم ، كانت متعلقة بأبيها الى درجة أنها كانت ترفض أى اتصال وثيق بالرجال ، وكانت تنفق وقت فراغها كله مع أبيها • وهو رجل لطيف المعشر ، ولكنه « جنتلمان » حامل ، ترمل فى وقت مبكر • ولم يكن ثمة ما يشغلها الى جانب الرسم ، غير أبيها • وكانت الصورة التى تعطيها للآخرين عنه تختلف عن الواقع اختلافا ضخما ، وبعد وفاته ، انتحرت ، وتركت وصية لا تشترط فيها الا أن تدفن الى جواره •

شخص آخر ، على قدر كبير من الذكاء والموهبة ، يحترمه الجميع احتراما عظيما ، كان يحيا حياة سرية يكرسها تمام التكريس لعبادة والده الذى يمكن أن يوصف - اذا توخيينا أكبر قدر من السخاء - بأنه شخص حصيف لا يحرص الا على اكتساب المال والمكانة الاجتماعية • أما صورة الابن عن الأب فكانت تصوره بأنه أحكم وأحب وأحن والد ، اصطفاه الله ليهديه الى طريق الصواب فى الحياة • وكان كل فعل يأتية الابن ، وكل فكرة تخطر له ، ينظر اليها من وجهة نظر الأب هل يحبها أم يستنكرها ، ولما كان والده يميل عادة فى الحياة الواقعية الى الاستهجان ، فقد شعر المريض انه يبدؤ بسخط أبيه فى معظم الوقت ، ولهذا حاول فى احتياج شديد أن يستعيد رضى أبيه حتى بعد أن انقضت عدة سنوات على وفاته •

ويحاول المحلل النفسانى أن يكتشف أسباب هذه الارتباطات المرضية . أملنا أن يساعد المريض على تحرير نفسه من هذه العبادة العرجاء للأب • بيد أننا لا نهتم هاهنا بالأسباب ، أو بمشكلة العلاج ، بل بالظاهرة نفسها • فذهن نجد اعتمادا على الأب يدوم بشدة غير متناقصة عدة أعوام بعد وفاة الأب ، وهذا الاعتماد يصيب قدرة المريض على الحكم بالشلل ، ويجعله عاجزا عن الحب ، شاعرا بأنه كالطفل ، فى حالة مستمرة من عدم الاستقرار والذعر • هذا التركيز لحياة المرء حول سلف ، وانفاق معظم طاقته فى عبادة هذا

السلف ، لا يختلف عن عبادة الأسلاف الدينية ، فهو يعطى إطارا للتوجيه ، ومبدءا موحدا للعبادة • وهنا يكمن السبب فى أن المريض لا يمكن أن يشفى بمجرد الإشارة الى ما يتسم به سلوكه من لا معقولية ، والى الضرر الذى يلحقه بنفسه • فكثيرا ما يعرف هذا فى شطر من نفسه من الناحية العقلية ، ولكنه مرتبط ارتباطا تاما بهذه العبادة من الناحية العاطفية • ولا يمكن أن يتحرر « من » هذه العبادة الذليلة لأبيه الا اذا طرأ تغيير عميق على شخصيته بأسرها ، بحيث يصبح حرا فى أن يفكر وأن يحب ، وأن يحصل على بؤرة جديدة من التسويج والعبادة • ولن يتحرر من هذا الشكل الأدنى للدين ، الا اذا كان قادرا على اعتناق شكل أعلى للدين •

ويعرض المرضى بالعصاب القهرى أشكالا عديدة من الطقوس الخاصة • فالشخص الذى تدور حياته حول الشعور بالذنب والحاجة الى التكفير قد يختار الاغتسال القهرى بوصفه الطقس المسيطر على حياته ، وقد يختار شخص يتبدى عصابه فى التفكير أكثر مما يتبدى فى الأفعال - طقسا يدفعه الى التفكير أو الى صيغ معينة مفروض فيها أن تمنع وقوع الكارثة ، أو صيغ أخرى تضمن النجاح • وسواء وصفنا هذه المصيغ بأنها أعراض عصابية أو طقوس ، فإن هذا الموصف يتوقف على وجهة نظرنا ، غير أن هذه الأعراض « هى » فى جوهرها طقوس دين خاص •

هل لدينا « طوطمية » فى حضارتنا ؟ لدينا منها حظ كبير - وإن كان من يكابدون منها لا يعتبرون أنفسهم فى حاجة الى معونة الطب النفسى • والشخص الذى يكرس نفسه تكريسا تاما للدولة أو لحزبه السياسى ، والذى يكون معياره الوحيد للقيمة والحقيقة هو مصلحة الدولة أو الحزب ، والذى يجعل من العلم بوصفه رمزا لجماعته موضوعا مقدسا ، مثل هذا الشخص يعتنق دينا قبليا ، ويتعبد عبادة طوطمية ، وإن اعتقد أنه يعتنق مذهباً عقلانيا لا غبار

عليه (وهذا ما يعتقده بالطبع كل المؤمنين بأى نوع من الدين البدائى) • فاذا أردنا أن نفهم كيف تمتلك بعض النظم كالفاشية أو الستالينية ملايين من البشر ، على استعداد للتضحية بتكاملهم وعقلهم للمبدأ القائل : « وطنى ، مخطئا أو مصيبا » ، فلا مناص لنا من أن ننظر فى نزعتهم الطوطمية ، والصبغة الدينية التى يتسم بها توجيههم •

وهذا شكل آخر من أشكال الدين الشخصى ، وهو شائع جدا ، ولكنه ليس سائدا فى حضارتنا ، وأعنى به دين النظافة • وأنصار هذا الدين لا يملكون سوى معيار رئيسى واحد للقيمة يحكمون به على الناس هو : النظافة والنظام • وقد تبنت هذه الظاهرة على نحو بارز فى رد فعل كثير من الجنود الأمريكيين أثناء الحرب الأخيرة • ولما كانوا فى أغلب الأحيان متناقضين مع معتقداتهم السياسية ، فانهم يحكمون على الحلفاء والأعداء من وجهة نظر هذا الدين • فكان الانجليز والألمان يأتون فى المرتبة الأولى ، أما الفرنسيون والايطاليون فكانوا ينزلونهم فى المرتبة الدنيا من سلم القيم هذا • ودين النظافة والنظام لا يختلف فى جوهره اختلافا كبيرا عن المذاهب الدينية المغالية فى طقوسها والتى تدور حول محاولة التخلص من الشر بأداء طقوس النظافة والحصول على الأمان فى الأداء المبارم للنظام الشعائرى •

وهناك اختلاف هام بين العبادة الدينية والعصاب يجعل العبادة تسمى بكثير على العصاب من حيث الاشباع المكتسب - فلو تخيلنا أن المريض المصاب بالتهيب العصابى للأب يعيش فى حضارة تمارس عبادة السلف على نحو عام بوصفها دينا ، فانه يستطيع أن يقتسم مع أهل وطنه دون أن يشعر بالانعزال عنهم • والشعور بالعزلة والانغلاق هو الوخزة الأليمة فى كل عصاب • فحتى أبعد التوجيهات عن المعقولية لو اشترك فيه عدد كبير من الناس ، فانه يعطى الفرد شعورا بالاتحاد مع الآخرين ، وقدرا معيناً من الأمن والاستقرار يفتقر اليه الشخص العصابى • وما من شيء لا انسانى أو شرير أو لا معقول لا يمنح

شيئاً من الراحة اذا اشتركت فيه جماعة • ولعل أشد الأدلة اقناعاً على هذا القول ، ما نجده فى حوادث الجنون الجماعى التى شهدناها ومازلنا نشاهدها • فما أن يتمكن مذهب من المذاهب أياً كانت لامعقوليته فى مجتمع ما ، حتى يؤمن به ملايين من الناس ، بدلا من أن يشعروا بالنبذ والانعزال •

هذه الأفكار تؤدى الى نظرة هامة تتعلق بوظيفة الدين • فاذا كان الانسان ينتكس بهذه السهولة الى شكل أكثر بدائية من أشكال الدين ، أليست وظيفة الأديان التوحيدية التى ينبغى أن تقوم بها اليوم هى انقاذ الانسان من هذا الانتكاس ؟ أليس الاعتقاد فى الله واقيا من الارتداد الى عبادة السلف أو الطوطم ، أو العجل الذهبى ؟ قد يكون ذلك حقاً لو أن الدين نجح فى صياغة شخصية الانسان وفق مثله العليا المقررة ، بيد أن الدين التاريخى قد انهزم أمام السلطان الدنيوى ، وآثر المصالحة مرة بعد أخرى • كما أنه وجه عناية أكبر الى معتقدات معينة بدلا من أن يعنى بممارسة الحب والتواضع فى الحياة اليومية • وأخفق الدين فى تحدى السلطان الدنيوى باستمرار وفى غير هوادة حيثما انتهك هذا السلطان روح المثل الأعلى المدينى بل على العكس من ذلك شارك المرة تلو المرة فى مثل هذه الانتهاكات • ولو كانت الكنائس ممثلة لا للحرف الذى نزلت به الوصايا العشر أو القاعدة الذهبية فحسب ، بل لروح هذه الوصايا ، إذن لكانت قوى قادرة على سد طريق الارتداد الى عبادة الأصنام • ولكن ، مادام هذا الأمر هو الاستثناء لا القاعدة ، فلا بد من أن نسأل هذا السؤال ، لا من وجهة النظر المعادية للدين ، بل نتيجة لقلقنا على روح الانسان ، هل نستطيع أن ننق فى أن يكون الدين ممثلاً للحاجات الدينية أم ينبغى علينا أن نفصل هذه الحاجات عن الدين التقليدى القائم حتى نمنع انهيار كياننا الأخلاقى ؟

علينا أن نتذكر فى محاولة الأجابة على هذا السؤال أنه لا يمكن أن تدور مناقشة ذكية لهذه المشكلة مادامنا نقنول الدين بوجه عام بدلا من التمييز بين

الأنماط المتباينة من الدين والخبرة الدينية . وربما تجاوزنا نطاق هذا الفصل إذا حاولنا استعراض أنماط الدين جميعا . بل إن الاختصار على مناقشة الأنماط التي تتصل بموضوعنا من وجهة النظر النفسية لا يمكن أن نقدم عليها هنا . وعلى هذا فسوف أعالج تمييزا واحدا ، ولكنه فى رأى أهمها جميعا ، كما أنه يقطع خلال الأديان التأليهية وغير التأليهية : وأعنى به ذلك التمييز بين الأديان الانسانية humanistic والأديان التسلطية authoritarian

فما مبدأ الدين التسلطى ؟ يعد تعريف الدين الذى يورده معجم أكسفورد حين يحاول تعريف الدين من حيث هو كذلك - يعد بالأحرى تعريفا دقيقا للدين التسلطى ، إذ يقول : « (الدين هو) اعتراف الانسان بقوة عليا غير منظورة . تتحكم فى مصيره ، ولها عليه حق الطاعة والتبجيل والعبادة » .

وهنا يوضع التأكيد على الاعتراف بأن الانسان تحكمه قوة عليا خارج نفسه . بيد أن هذا وحده لا يؤلف الدين التسلطى . فما يجعله ذلك هو فكرة أن هذه القوة بسبب السيطرة التى تمارسها « جديرة » بالطاعة والتبجيل والعبادة . وقد وضعت كلمة جديرة بين شولات لأنها تبين أن سبب العبادة والطاعة والتبجيل لا يمكن فى صفات الاله الأخلاقية ، فى الحب أو العدل ، وإنما فى أن لها السيطرة ، أى السلطان على الانسان . كما أنها تبين أيضا أن للقوة العليا الحق فى ارغام الانسان على عبادتها ، وأن التقيصير فى التبجيل والطاعة يعد اثما .

والمعنى الجوهرى فى الدين التسلطى وفى التجربة الدينية التسلطية هو الاستسلام لقوة تلو على الانسان . والفضيلة الأساسية فى هذا النمط من الدين هى الطاعة ، والخطيئة الكبرى هى العصيان . وكما يتصور الاله على أنه شامل القدرة ، محيط علما بكل شئ ، فذلك يتصور الانسان على أنه عاجز ، تافه الشأن . ولا يشعر بالقوة الا بمقدار ما يكتسب من فضل الاله ومعاونته عن طريق الاستسلام التام . والاذعان لسلطة قوية هو أحد السبل

التي يستطيع بها الانسان أن يهرب من شعوره بالوحدة والحدودية • وفي فعل الاستسلام يفقد استقلاله وتكامله بوصفه فردا ، ولكنه يكتسب الشعور بأن قوة مهيبية تحميه ، بحيث يصبح جزءا منها •

ونحن نجد في لاهوت كالفن صورة حية للتفكير التسلطى الألوهى ، إن يقول : « أنا-لا أسمى هذا تواضعا ، إذا افترضت أنه لم يبق لنا شيء ... فنحن لا نستطيع أن نفكر في أنفسنا كما ينبغي أن نفكر ان لم نحتقر تمام الاحتقار كل ما نفترض أنه امتياز فينا • وهذا التواضع خضوع صريح لعقل يرهقه شعور ثقيل الوطأة بتمعاسته وفقره ، وهذا هو وصفه المتجانس بعبارة الاله » (٢) •

والتجربة التي يصفها كالفن هنا ، أعنى احتقار كل شيء في الانسان ، وخضوع العقل الذي ينوء بفقره ، هذه التجربة هي جوهر الأديان التسلطية كلها ، سواء صيغت بلغة علمانية أو لاهوتية (٣) • والاله في الدين التسلطى رمز للقوة والجبروت ، وهو الأعلى لأن له القوة الأعلى ، والانسان الى جواره لا حول له ولا قوة •

والدين التسلطى العلمانى (أو الدنيوى) يتبع هذا المبدأ نفسه • فهنا يصبح الفوهرر أو « أبو الشعب » المحبوب ، أو الدولة ، أو الجنس Race ، أو الوطن الاشتراكى - موضوعا للعبادة ، وتصبح حياة الفرد تافهة ، وتتألف قيمة الانسان من انكاره لقيمته وقوته • وكثيرا ما يسلم الدين التسلطى بمثل أعلى يصل درجة عالية من التجريد والمبعد بحيث لا يمت بصلة تقريبا بالحياة

(٢) Johannes Calvin, Institutes of Christian Religion (Presbyterian Board of Christian Education, 1928), p. 681.

(٣) See Erick Fromm, Escape from Freedom (Ferrare and Reinhart, 1941), p. 141.

خفيه وصف مفصل لهذا الموقف من السلطة •

الواقعية للشعب الحقيقي • ولمثل هذه المثل العليا « كالحياة بعد الموت »
أو « مستقبل الانسانية » يمكن أن يضحى بحياة وسعادة الأشخاص الذين
يعيشون هنا والآن ، وهذه الغايات المزعومة تبرر كل الوسائل ، وتصبح رموزا
تتحكم باسمها « الصفوة » الدينية أو المديونية في حياة اخوانهم من البشر •
وعلى العكس من ذلك ، يدور الدين الانساني حول الانسان وقوته •
فعلى الانسان أن ينمى قدرة عقله كيما يفهم نفسه ، وعلاقته بغيره من الناس ،
وموضعه في الكون • كما ينبغي عليه أن يعرف الحقيقة فيما يتعلق بحدوده
أو امكانياته على السواء • وعليه أن ينمى قدراته على حب الآخرين ، كما
يحب نفسه ، وأن يخوض تجربة التضامن مع الكائنات الحية جميعا • ولا بد
أن تكون له مبادئ ومعايير ترشده الى هذه الغاية • والتجربة الدينية في هذا
النوع من الدين هي تجربة الاتحاد بالكل ، القائمة على ارتباط الانسان
بالعالم ارتباطا ندركه بالفكر والحب • وهدف الانسان في الدين الانساني
هو أن يحقق أكبر قدر من القوة ، لا أكبر قدر من العجز ، والفضيلة هي تحقيق
الذات ، لا الطاعة • والايمان هو يقين الاقتناع المؤسس على تجربة المرء
في مجال الفكر والشعور ، لا على تصديق قضايا وفقا لزمة المتقدم بها •
والمزاج المسائد فيها هو المفرح ، على حين أن المزاج السائد في الدين التسلطي
هو الحزن والشعور بالذنب •

وبقدر ما تكون الأديان الانسانية تأليهية ، يكون الاله رمزا على « قوى
الانسان الخاصة » التي يحاول تحقيقها في الحياة ، ولا يكون رمزا على القوة
والتسلط ، و « القدرة على الانسان » •

ومن أمثلة الأديان الانسانية ، البوذية المبكرة ، والطاوية ، وشماليين
المسيح وسقراط واسبينوزا ، وبعض الاتجاهات في الديانتين اليهودية
والمسيحية (وخاصة في التصوف) ، ودين العقل الذي نادت به الثورة
الفرنسية • ويتضح من هذه الأديان أن التمييز بين الدين التسلطي والدين

الانسانى يتقاطع مع التمييز بين التأليهى وغير التأليهى . كما يتقاطع مع التمييز بين الأديان بالمعنى الضيق ، والمذاهب الفلسفية ذات الطابع الدينى . والمهم فى مثل هذه المذاهب جميعا ليس المذهب الفكرى من حيث هو كذلك ، بل الموقف الانسانى الكامن وراء معتقداتها .

والبوذية المبكرة من أفضل الأمثلة على الأديان الانسانية ، ذلك أن بوذا معلم عظيم ، انه « المستنير » الذى أدرك حقيقة الوجود الانسانى ، وهو لا يتحدث باسم قوة فائقة على الطبيعة ، بل باسم العقل ، انه يهيب بكل انسان أن يستخدم عقله الخاص وأن يرى الحقيقة التى كان هو أول من رآها فحسب . فما أن يخطو الانسان الخطوة الأولى فى رؤية الحقيقة ، الا وكان من واجبه استخدام جهوده لكى يحيا حياته على نحو يمكنه من تنمية قدراته فى العقل وفى حب المخلوقات الانسانية كلها . وبقدر ما ينجح فى هذا ، يستطيع أن يحرر نفسه من أسر العواطف الجامحة . وعلى حين ينبغى على الانسان أن يدرك حدوده وفقا للتعاليم البوذية ، ينبغى عليه أيضا أن يكون واعيا بالقوى الكامنة فى نفسه . وتصور النرفانا بوصفها الحالة العقلية التى يمكن أن يبلغها المستنير استنارة كاملة ليس تصورا لعجز الانسان وخضوعه ، ولكنه على العكس من ذلك تصور لتطور أعلى القدرات التى يملكها الانسان .

وهذه القصة التالية عن بوذا تمثل هذا القول أصدق تمثيل :

جلس أرنب برى ذات يوم تحت إحدى أشجار المانجو فغلبه النعاس ، ونجاة سمع صوتا عاليا ، فخيل اليه أن نهاية العالم قد اقتربت ، وشرع يعدو . وحين رآته الأرانب الأخرى يجرى سألته : « لماذا تجرى بهذه السرعة ؟ فاجاب : « لقد اقتربت نهاية العالم » فما أن سمعوا اجابته تلك حتى انضموا اليه فى الهرب . وحين شاهد الغزال الأرانب وهى تجرى سألها : « لماذا تركضون بهذه السرعة ؟ » أجابت الأرانب : « اننا نركض لأن القيامة قد قامت » . وهنا انضم اليها الغزال فى الهرب . وهكذا انضم نوع اثر نوع الى

الحيوانات اللائذة بالفرار حتى أخذت مملكة الحيوان كلها فى هذا الهروب المضطرب الذى كان من الممكن أن ينتهى بفنائها . وعندما أبصر بوذا الحيوانات جميعا تتراخض بهذه الفوضى - وكان يعيش فى ذلك الحين عيشة رجل حكيم ، وهو أحد صور وجوده المتعددة - سأل الجماعة الأخيرة التى انضمت الى المماريين ، لماذا تجرى على هذا النحو ، أجابت : « لأن القيامة قد قامت ، فقال بوذا : « لا يمكن أن يكون هذا حقا . لم تقم القيامة ، ولكن لنرى لماذا يفكرون على هذا النحو » . ثم تحرى حقيقة الأمر من نوع الى آخر ، متعبا المشائعة حتى وصل الى المغزلة ، وبعدها الى الأرانب . وعندما أخبرته الأرانب أنها كانت تجرى لأن القيامة قد حلت ، سأل عن الأرنب الذى قال لها ذلك . فأشارت الأرانب الى الأرنب الذى بدأ بإشاعة النبأ ، فالتفت اليه بوذا سائلا : « أين كنت ، وماذا صنعت حين علمت أن نهاية العالم قد حانت ؟ » فأجابه الأرنب : « كنت جالسا تحت شجرة مانجو ، فغلبنى النعاس » . فقال له بوذا : « من المحتمل أنك سمعت ثمرة مانجو تسقط ، فأيقظك صوتها . وانتابك المفزع ، فظننت أن القيامة قامت . فلنرجع الى الشجرة التى جلست تحتها لنتبين جلية الأمر » . وذهبا معا الى الشجرة ، فوجدا إحدى ثمار المانجو قد سقطت حيث جلس الأرنب . وهكذا أنقذ بوذا مملكة الحيوان من الفناء .

ولم أستشهد بهذه القصة لأنها واحدة من أقدم الأمثلة على البحث التحليلي فى أصول الخوف والشائعات ، بل لأنها معبرة أبلغ التعبير عن المروح البوذية ، فهى تبين الاهتمام المفعم بالحب لكائنات العالم الحيوانى ، كما تبين فى الوقت نفسه الفهم العقلى الناقد ، والثقة فى قوى الانسان .

وتعد طائفة زن البوذية Zen — Buddhism وهى طائفة تفرعت فيما بعد عن البوذية - معبرة عن موقف أكثر من ذلك جذرية ضد النزعة التسلطية . ان يذهب زن Zen الى أن أية معرفة لا قيمة لها ان لم تنبت من أنفسنا ، وما من سلطة ، أو معلم يستطيع أن يعلمنا شيئا فى حقيقة الأمر ، اللهم الا اثاره

الشكوك في نفوسنا ، والألفاظ والمذاهب الفكرية خطيرة لأنها تتحول بسهولة إلى سلطات تعبدية • وينبغي أن ندرك الحياة نفسها وأن نخبرها في جريانها ، وفي هذا تكمن المفضيلة • ومن أمثلة هذا الموقف غير التسلطي نحو الكائنات العليا ، نرى القصة التالية :

« عندما وقف تانكا Tanka من أسرة تانج Tang الحاكمة عند بيرنجي Yerinj. في الكابيتول ، كان الجو شديد البرودة ، فأخذ إحدى صور بوذا المحفوظة بين المقدسات ، وصنع منها نارا عظيمة استدفأ بها • وحين رأى حارس الضريح هذا الفعل ، استشاط غضبا ، وصاح قائلا : « كيف تجرؤ على احراق صورتي الخشبية لبوذا ؟ »

وشرع تانكا يفتش في الرماد كأنما يبحث عن شيء ثم قال : « انى أجمع الساريراس المقدس (وهو نوع من المخلوقات التي توجد في الجسم الانساني بعد احراق الجثة ، ومن المعتقد أنه يمثل قداسة الحياة) من الرماد المحترق » • قال الحارس : « كيف يمكن أن تحصل على الساريراس من تمثال خشبي لبوذا ؟ »

فأجاب تانكا : « اذا لم يكن فيها ساريراس ، فهل أستطيع أن آخذ تمثالي بوذا الآخرين لأشعل بهما ناري ؟ »

« وفقد حارس الضريح جفنيه فيما بعد لاحتجازه على تجديد تانكا الظاهري ، على حين أن غضب بوذا لم ينزل على هذا الأخير قط » (٤) •

(٤) راجع كتاب D.T. Suzuki تحت عنوان : « مقدمة لبوذية زن (رايدر وشركاه ، ١٩٤٨) ص ١٢٤ • انظر أيضا مؤلفات الأستاذ سوزوكي الأخرى عن « زن » ، وكتاب Ch. Humphery عن « بوذية زن (و • هاينمان وشركاه ، ١٩٤٩) • وقد صدرت عام ١٩٥٠ مجموعة من الوثائق الدينية المعبرة عن الدين الانساني ، مأخوذة من جميع المصادر الكبرى في المشرق والغرب ، وأشرف على تحريرها Victor Gollancz وفي هذه المجموعة يجد القارئ ثروة من الوثائق عن التفكير الديني الانساني •

ثمة مثال آخر يصور مذهباً دينياً إنسانياً نجده في فكر اسپينوزا الديني .
فمع أن لغته هي لغة اللاهوت في العصر الوسيط ، إلا أن تصوره للاله لا يحصل
أى أثر للنزعة التسلطية . لم يكن الاله يستطيع أن يخلق العالم مختلفاً عما
هو عليه ، وهو لا يستطيع أن يغير شيئاً ، والواقع أن الاله في هوية مع مجموع
الكون totality of the universe . وعلى الانسان أن يرى حدوده
الخاصة وأن يدرك أنه معتمد على مجموع القوى الخارجة عنه التي لا يملك
عليها سلطاناً . ومع ذلك فإن قواه هي قوى الحب والعقل . وهو يستطيع أن
ينمي هذه القوى وأن يحصل على الدرجة القصوى من الحرية والقوة الباطنة .

ولا يقطع التمييز بين الدين التسلطي والدين الانساني خلال مختلف
الأديان بل يمكن أن يقوم داخل دين واحد بعينه . وتراثنا الديني واحد من أفضل
الأمثلة الواضحة على هذه النقطة . ولما كان من الأهمية الجوهرية أن نفهم
الفرق بين الدين التسلطي والدين الانساني فهما تاماً ، فسوف ألقى عليه
مزيداً من التوضيح مستعيناً بمصدر يألفه القارئ بصورة أو بأخرى ، وأعني
به العهد القديم .

الاستهلال في العهد القديم (٥) مكتوب بروح الدين التسلطي . وصورة
الاله هي صورة الحاكم المطلق لقبيلة أبوية patriarchal خلق الانسان وفق
هواه ، ويستطيع أن يحطمه تبعاً لمشيئته . وقد حرم أن يأكل من شجرة معرفة
الخير والشر ، وهدده بالموت ان هو عصى هذا الأمر . وقالت الحية التي « كانت
أحيل جميع حيوانات البرية » ﴿ لحواء : « لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم
تأكلأ منه ﴾ ﴿ تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر (٦) ﴾ . وبرهن

(٥) لسنا في حاجة الى أن نبحث هنا الحقيقة التاريخية القائلة بأن بداية الكتاب
المقدس ليست هي أقدم أجزاءه ، وذلك لأننا نستخدم النص بوصفه مثلاً على مبدئين «ون أن
نقصد اثبات التابع التاريخي .

(*) سفر التكوين ، الأصحاح الثالث ، آية ١ . (المترجم)

(**) أى من ثمر الشجرة المحرمة . (المترجم)

(٦) التكوين ٣ : ٤ - ٥ .

الله على أن الحياة صادقة • فحين عصى آدم وحواء أمر ربهما ، عاقبهما بإعلان
العداوة بين الانسان والطبيعة ، بين الانسان والأرض والحيوانات ، بين
الرجال والنساء ، بيد أن الانسان لن يموت فقد قال الرب : « هو ذا الانسان
قد صار واحدا منا ، عارفا للخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة
الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد » (٧) ، وطرد الله آدم وحواء من جنة
عدن وأقام شرقي عدن ملاكا (الكروبيم) ولهيب سيف متقلب « لحراسة طريق
شجرة الحياة » •

ويوضح النص توضيحا لا مزيد عليه خطيئة الانسان : انها التمرد على
أمر الاله ، انها العصيان وليست خطيئة متأصلة في فعل الأكل من شجرة
المعرفة • بل على العكس ، جعل التطور الديني الذي أتى بعد ذلك - جعل معرفة
الخير والشر هي الفضيلة الرئيسية التي يتطلع اليها الانسان • كما أوضح
النص أيضا دافع الاله : انه المحرض على دوره الأسمى ، والخوف المغيور
من ادعاء الانسان أنه ند له •

ونستطيع أن نلمس نقطة تحول حاسمة في علاقة الاله بالانسان في قصة
الطوفان • فعندما رأى الاله « أن شر الانسان قد كثر في الأرض ••• حزن
الرب أنه عمل الانسان في الأرض ، وتأسف في قلبه • فقال الرب أمحو عن
وجه الأرض الانسان الذي خلقته • الانسان مع دبابات وطيور السماء ، لأنى
حزنت أنى عملتهم » (٨) •

لا مجال هنا للقول بشيء آخر سوى أن للاله الحق في تحطيم مخلوقاته ،
لقد خلقهم ، وهم ملك له • ويصف النص الشر الذي يرتكبه الناس بـ (العنف)،
بيد أن القرار الذي اتخذته الاله لا يمحى الانسان وحده ، بل ومعه الحيوان

(٧) نفس المرجع ، ٢ : ٢٢

(٨) نفس المرجع ، ٥/٦ والآيات التالية •

والنبات ، يبين أننا لسنا هنا بصدد حكم يتناسب مع جريمة معينة ، بل ازاء
أسف الاله الغاضب على فعلته التى لم ينتج عنها الخير » • وأما نوح فوجد
نعمة فى عينى الرب : « ولهذا نجا من الطوفان هو وأسرته ومن كل أنواع
الحيوان اثنان ، وهكذا كان محو الانسان ونجاة نوح فعلين جزائيين من أفعال
الاله ، فهو يفعل ما يريد ، كما يفعل أى رئيس قبيلة قوى • بيد أن العلاقة بين
الاله والانسان تغيرت بعد الطوفان تغيرا أساسيا ، فثمة ميثاق أخذ بين الاله
والانسان يتعهد فيه الاله « بألا ينقرض كل ذى جسد أيضا بمياه الفيضان ،
ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض » (٩) • فالاله يلتزم بألا يحو الحياة
على الأرض ، وكذلك يلتزم الانسان بأول أمر أساسى فى الكتاب المقدس وهو
ألا يقتل : « ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان ومن يد الانسان أخيه » (١٠) •
ومن هذه اللحظة طرأ تغيير عميق على الصلة بين الاله والانسان • فلم يعد
الاله هو الحاكم المطلق الذى يتصرف وفق هواه ، ولكنه مقيد بدستور عليه
وعلى الانسان أن يلتزما به ، انه مقيد بمبدأ لا يستطيع انتهاكه ، مبدأ احترام
الحياة • ويستطيع الاله أن يعاقب الانسان اذا انتهك هذا المبدأ ، غير أن
الانسان يستطيع أيضا أن يتحدى الاله اذا أقدم على انتهاكه •

وتبدو العلاقة الجديدة بين الاله والانسان واضحة فى دعاء ابراهيم من
أجل سدوم وعمورة • فعندما فكر الاله فى اهلاك المدينتين لفسادهما ، وجه
ابراهيم شكواه الى الاله لأنه نقض مبادئه : « حاشا لك أن تفعل مثل هذا
الأمر أن تميت البار مع الأثيم ، فيكون البار كالأثيم ، حاشا لك • أديان كل
الأرض لا يصنع عدلا ؟ » (١١) •

(٩) نفس المرجع ، ٩ : ١١

(١٠) نفس المرجع ، ٩ : ٥

(١) نفس المرجع ، ١٨ : ٢٥

والاختلاف بين قصة الخطيئة الأولى وهذا النقاش كبير حقا • فهناك
كان الانسان ممنوعا من معرفة الخير والشر ، وكان موقفه من الاله هو موقف
الاذعان - أو العصيان الاثم • أما هنا ، فالانسان يستخدم معرفته بالخير
والشر ، ويشكو الى الاله باسم العدل ، وعلى الاله أن يقبل ذلك •

وحتى هذا التحليل الموجز للعناصر التسلطية فى قصة الكتاب المقدس
تبين لنا أن مبدأى التسلط والانسانية قائمان على السواء فى جذور الدين
اليهودى المسيحى • وتم الاحتفاظ بهما معا فى تطور اليهودية والمسيحية ،
وتغلب أحدهما على الآخر يمثل اتجاهات متباينة فى كل من الديانتين •

والقصة التالية المأخوذة من التلمود تعبر عن الجانب الانسانى غير
التسلطى فى اليهودية كما نجده فى القرون الأولى من الفترة المسيحية •

وكان عدد من الأحرار المتفقهين المشهورين قد اختلفوا مع آراء الحاخام
اليعازر حول نقطة فى قانون الشعائر • قال لهم الحاخام اليعازر : « اذا كان
كما أعتقد ، فسوف نخبرنا هذه الشجرة » • وحينئذ قفزت الشجرة من
مكانها مائة ياردة (ويقول آخرون أربعمائة ياردة) • فقال له زملاؤه :
« لا يبرهن الانسان على شيء بواسطة شجرة » • فقال : « لو كنت مصيبا
فسيوخبرنا هذا الغدير » • واستطرد قائلا : « لو كان القانون كما أعتقد
فسيوخبرنا جدران هذا المنزل » • وفى هذه اللحظة أخذت الجدران تتداعى •
غير أن الحبر « يوشع » صاح فى الجدران قائلا : « حين يتجادل الفقهاء حول
نقطة فى القانون ، فما الداعى الى سقوطك ؟ » وهكذا كفت الجدران عن السقوط
احتراما للحبر يوشع ، ولكنه لم تعطل تماما احتراما للحاخام اليعازر •
وما زالت على هذه الحال حتى الآن • واستأنف الحاخام اليعازر المناقشة
قائلا : « اذا كان القانون كما أعتقد ، فسيوخبرنا السماء » • وهنا قال صوت
من السماء : « ماذا لديكم ضد الحاخام اليعازر ، لأن القانون كما يقول » •
وهنا نهض الحبر جوشوا وقال : « انه مكتوب فى الكتاب المقدس : القانون

ليس فى السماء • ما معنى هذا ؟ من رأى الحاخام ارميا هو أنه هادامت التوراة قد نزلت عند طور سيناء ، فاننا لم نعد نلتفت الى الأصوات الصادرة عن السماء ، فقد كتب : « انكم تتخذون قراراتكم وفقا لأغلبية الرأى » ، وحدث حينذاك أن الحاخام ناثنان (وهو أحد المشتركين فى المناقشة) التقى بالنبى ايليا (الذى كان يجوب العالم) فسأله : « ماذا يقول الاله نفسه عندما دخلنا فى هذه المناقشة ؟ » فأجاب النبى : « ابتسم الرب وقال : لقد فاز أبنائى • • • • • لقد فاز أبنائى » (١٢) •

هذه القصة تكاد لا تحتاج الى تعليق ، فهى تؤكد استقلال عقل الانسان الذى لا تستطيع أصوات السماء نفسها أن تتدخل فيه • والاله يبتسم ، لأن الانسان قد فعل ما أراد الاله له أن يفعل ، فأصبح سيد نفسه ، قادرا ومصمما على اتخاذ قراراته بنفسه وفقا للمناهج العقلية والديمقراطية •

وهذه الروح الانسانية نفسها نجدها فى كثير من القصص التى يحفل بها الفولكلور الحسيدي Chassidic منذ أكثر من أربعة آلاف عام بعد ذلك • وقد كانت الحركة الحسيدية Chassidic تمرّد قام بها الفقراء ضد أولئك الذين كانوا يحتكرون العلم والمال • وكان شعارهم آية من المزامير تقول : « اعبدوا الرب بفرح » وكانوا يؤكّدون على الشعور لا على المبراعة العقلية ، وعلى الفرح لا على الحزن ، وفى رأيهم (كما هو فى رأى اسبينوزا) أن الفرح معادل للفضيلة ، والحزن معادل للرذيلة • وتمثل القصة التالية الروح الانسانية غير التسلطية لهذه الطائفة الدينية :

أقبل خياط فقير على حاخام من هذه الطائفة فى اليوم التالى على يوم التكفير Atonement وقال له : « بالأمس تجادلت مع الاله ، فقلت له « يا الهى

لقد ارتكبت خطايا ، وارتكبت خطايا • غير أنك ارتكبت خطايا عظيمة ، أما أنا فارتكبت خطايا تافهة • فماذا صنعت ؟ لقد فرقت بين الأمهات وأبنائهن ، سمحت للناس أن يتضوروا جوعا • أما أنا فماذا صنعت ؟ فشلت أحيانا فى ارجاع قطعة من الثياب لزبون ، أو لم أكن دقيقا فى التزام القانون • ولكنى سأقول لك ، يا رب • سأغفر لك خطاياك ، على أن تغفر لى خطاياى ، وبذلك نكون متعادلين • وهنا أجاب الحاخام : « أيها الأحمق ! لماذا تركته يمشى بهذه السهولة ؟ كان يمكنك أن ترغمه أمس على ارسال المسيح » •

هذه القصة تبين على نحو أكثر تطرفا من مناقشة ابراهيم مع الاله ، فكرة أن الاله ينبغي أن يفى بوعوده كما ينبغي على الانسان أن يفى بها • فإذا كان الاله لا يستطيع أن يضع حدا لعذاب الانسان كما وعد ، فمن حق الانسان أن يتحده ، بل أن يجبره فى الواقع على الوفاء بوعده • ومع أن القصتين للثتين أوردناهما هنا يدخلان فى اطار الاشارة الى الدين التوحيدي ، الا أن الموقف الانسانى وراءهما يختلف اختلافا عميقا عن الموقف الذى نلمسه وراء استعداد ابراهيم للتضحية باسحق أو وراء تمجيد كالفن لقوى الاله الدكتاتورية •

أما كون المسيحية المبكرة ذات نزعة انسانية لا تسلطية ، فأمر واضح من روح تعاليم المسيح ونصوص هذه التعاليم جميعا • ومبدأ المسيح القائل بأن « ملكوت الرب فى داخلك » هو التعبير البسيط الواضح عن التفكير غير التسلطى • ولكن لم تكد تمضى مائة عام ، عندما لم تعد المسيحية دين الفلاحين والعمال والعبيد الفقراء المساكين ، بل أصبحت دين أولئك الذين يحكمون الامبراطورية الرومانية - حينذاك - ساد الاتجاه التسلطى فى المسيحية • ولم يكف الصراع بعد ذلك قط بين المبادئ التسلطية والمبادئ الانسانية فى المسيحية ، كان هذا هو الصراع بين أغسطين وبيلاجيوس ، بين الكنيسة الكاثوليكية وكثير من جماعات « الهرطقة » وبين الطوائف المختلفة داخل

البروتستانتية • ولم يقهر العنصر الانساني الديمقراطي قط فى التاريخ المسيحى أو اليهودى ، ووجد هذا العنصر أقوى تعبير عنه فى التفكير الصوفى داخل كلتا الديانتين • ذلك أن المتصوفة كانوا متشبعين تشبعا عميقا بتجربة قوة الانسان ، وتشابهه مع الاله ، وبفكرة أن الاله يحتاج الى الانسان ، بقدر ما يحتاج الانسان الى الاله ، وقد فهموا العبارة القائلة بأن الانسان خلق على صورة الاله بأنها تعنى الهوية الجوهرية بين الاله والانسان • ولم يكن الخوف والخضوع ، بل الحب وتأكيد الانسان لقواه هما أساس التجربة الصوفية • فليس الاله رمزاً للقدره على الانسان ، بل رمزاً على قوى الانسان الخاصة •

تناولنا حتى الآن السمات المميزة للدين التسلطى وللدين الانسانى فى عبارات وصفية • واسكن ينبغى على المحلل النفسانى أن ينتقل من وصف المواقف الى تحليل ما فيها من ديناميات dynamics • وهنا يستطيع أن يسهم فى مناقشتنا من منطقة ليست ميسرة لميادين البحث الأخرى • بيد أن الفهم الكامل لموقف ما يتطلب تقديرا للعمليات الواعية ، وعلى الأخص للعمليات اللاواعية التى تجرى فى الفرد والتى تفتضيها ضرورة هذا الموقف وشروط تطوره •

فعلى حين أن الاله فى الدين الانسانى صورة لذات الانسان العليا ، ورمز على ما يمكن أن يكون عليه الانسان أو ما ينبغى أن يثول اليه ، نرى أن الاله قد أصبح فى الدين التسلطى المالك الوحيد لما كان يملكه الانسان أصلا : أعنى العقل والحب • وكلمما كان الاله أكمل ، كان الانسان أنقص • انه « يسقط » أفضل ما عنده على الاله ، ومن ثم يفقر نفسه • وهكذا يملك الاله الآن كل الحب ، وكل الحكمة ، وكل العدل – والانسان محروم من هذه الصفات ، انه فقير خاوى الوفاض • فقد بدأ يشعور المضالته ، ولكنه أصبح الآن عاجزا تماما ، لا حول له ولا قوة ، وأسقط قواه كلها على الاله • وطريقة (ميكانيك) الاسقاط هذه هى نفسها ما يمكن ملاحظته فى العلاقات الشخصية

المتبادلة التى يقيمها ذات الطابع الخانع المشوب بالماسوشية ، حيث يرهب شخص شخصا آخر ، وحيث يعزو قدراته الخاصة وتطلعاته الى الشخص الآخر . وهو نفس الميكانيزم الذى يجعل الناس يخلعون على الزعماء ذوى المذاهب الممعة فى اللاانسانية صفات من الحكمة الخارقة والعطف (١٣) .

وانذا كان الانسان قد أسقط على هذا النحو أثمن قدراته على الاله ، فماذا عن علاقته بقواه الخاصة ؟ لقد أصبحت هذه القوى منفصلة عنه ، وأصبح فى هذه العملية « مغتربا » عن نفسه . وكل ما يملكه قد أصبح الآن ملكا للاله ، ولم يتبق له شيء . والمسبيل الوحيد الى نفسه يمر من خلال الاله . وفى عبادته للاله يحاول أن يتصل بذلك الشطر من نفسه الذى فقدته عن طريق الاسقاط . وهو يتوسل الآن الى الاله بعد أن أعطاه كل ما يملك ، لكى يعيد اليه بعض ما كان يملكه أصلا . ولكنه بعد أن فقد نفسه أصبح تحت رحمة الاله تماما . فهو يشعر بالضرورة كما يشعر « الخاطيء » ، مادام قد جرد نفسه من كل ما هو خير ، ولن يستطيع أن يسترد ما يجعله انسانا الا بفضل الاله ورحمته . وفى سبيل اقناع الاله بأن يمنحه شيئا من حبه ، ينبغي عليه أن يثبت له شدة حرمانه من الحب ، وفى سبيل اقناع الاله بأن يهديه بحكمته الفائقة ، ينبغي عليه أن يثبت له مدى حرمانه من الحكمة اذا ترك لنفسه .

بيد أن هذا الاغتراب عن قواه الخاصة ، لا يجعل الانسان معتمدا على الاله اعتمادا ذليلا فحسب ، بل يجعله شريرا أيضا . ان يصبح انسان بلا ثقة فى اخوانه البشر ، وفى نفسه ، بلا تجربة لحبه الخاص ، وقوة عقله الخاصة . ونتيجة لهذا يحدث الانفصال بين « المقدس » و « الدنيوى » . ويتصرف الانسان فى مناشطه الدنيوية بلا حب ، وفى ذلك القطاع من حياته الذى يدخره للدين ،

(١٣) راجع المناقشة حول العلاقة التكافلية symbiotic فى كتابنا « الهروب من الحرية » ص ١٥٨ والمفحات التالية .

يشعر أنه خاطيء (وهو خاطيء فعلا ، مادامت الحياة بلا حب ، هى الحياة فى الاثم) ويحاول أن يستعيد شيئا من انسانيته المضائعة بأن يكون على صلة بالاله . وكذلك يحاول فى الوقت نفسه أن يكتسب المغفرة بالالاح على عجزه وتفاهته . وهكذا يذشأ عن هذه المحاولة فى اكتساب الغفران ، تنشيط للموقف الذى تنبت منه الخطيئة . وهكذا يجد نفسه محصورا فى مأزق اليم ، فكلما أثنى على الاله ، صار أشد خواء . وكلما أصبح أشد خواء ، أحس بأنه يتمادى فى الخطيئة . وكلما أمعن فى الاثم ، ازداد تمجيذا للاله - وبالتالي صار أعجز عن استرداد نفسه .

وينبغى ألا يتوقف تحليل الدين عند كشف العمليات النفسية التى تدور فى الانسان وراء تجربته الدينية ، بل ينبغى أن تتقدم لاكتشاف الظروف التى تساعد على تنمية التراكيب ذات الطابع التسلطى والطابع الانسانى ، تلك التراكيب التى تنبثق منها ضروب التجربة الدينية المختلفة . مثل هذا التحليل الاجتماعى - النفسى socio-psychological يتجاوز سياق هذه الفصول . ومع ذلك ، يمكن أن نضع النقطة الرئيسية فى ايجاز . ان ما يفكر فيه الناس وما يشعرون به يضرب بجذوره فى شخصياتهم ، وشخصياتهم تصاغ وفق الصورة الكلية لممارستهم الحياة ، أو معنى أدق بالتركيب الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لمجتمعهم . ففى المجتمعات التى تحكمها أقلية قوية تسيطر على الجماهير ، يمتلئ الفرد بالخوف حتى يصبح عاجزا عن الشعور بالقوة والاستغلال ، وتكون تجربته الدينية فى هذه الحالة تسلطية . وسواء عبد الها مرهوب الجانب محبا للعقاب ، أو زعيما يتصوره على هذا المنحى - فلن يختلف الأمر كثيرا . ومن ناحية أخرى ، حيثما شعر الفرد بالحرية والمسئولية عن مصيره ، أو بين الأقليات المتطلعة الى الحرية والاستقلال - نشأت التجربة الدينية الانسانية وتطورت ، ويعطينا تاريخ الدين شواهد عديدة على هذا الترابط بين البناء الاجتماعى وبين ضروب الخبرة الدينية . ولقد كانت المسيحية المبكرة دينا للفقراء والمسحوقين ، ويكشف تاريخ الطوائف الدينية

التي حاربت ضد الاضطهاد السياسى التسلطى عن نفس هذا المبدأ مرة بعد أخرى • وحيثما تحالف الدين - من جهة أخرى - مع السلطة المديونية ، أصبح بالضرورة تسلطيا • والخطيئة الحقيقية للانسان هى اغترابه عن نفسه ، وادعائه للقوة وانقلابه على نفسه حتى لو كان ذلك تحت قناع عبادة الاله •

ومن روح الدين التسلطى ترتفع مغالطتان من مغالطات الاستدلال العقلى ، استخدمتا مرارا وتكرارا بوصفهما أدلة للدفاع عن الدين التآليهى • تسير احدى هاتين الحججتين على النحو التالى : كيف يمكن أن تنقد توكيد الاعتماد على قوة تعلو على الانسان ، أليس الانسان معتمدا على قوى خارج نفسه لا يستطيع أن يفهمها ، بل له أن يتحكم فيها ؟

من المؤكد أن الانسان معتمد على غيره ، فما برح عرضة للموت والشيخوخة والمرض • وحتى لو استطاع السيطرة على الطبيعة ، وجعلها خادمة له تماما ، فما زال هو وأرضه ذرتين ضئيلتين فى الكون • ولكن ثمة فرق كبير بين أن يعترف المرء باعتماده على غيره وبحدوده ، وبين أن يركن الى هذا الاعتماد ، ويعبد القوى التى يعتمد عليها • وأن نفهم أن قدرتنا محدودة فهما واقعيًا متزنًا جزء جوهري من الحكمة والنضج ، أما أن نعبدها ، فهذا يدخل فى باب الماسوشية وتدمير الذات • الموقف الأول هو التواضع ، أما الموقف الثانى فهو الاتضاع (أو اذلال النفس) •

ونستطيع أن ندرس الاختلاف بين الادراك الواقعى لحدودنا وبين التورط فى تجربة الخضوع والعجز - نستطيع أن ندرس هذا الاختلاف فى الفحص الاكلينيكي لسمات الشخصية الماسوشية • فثمة أناس يميلون الى التمارض ، وتعريض أنفسهم للحوادث ، وللمواقف الذليلة ، وتصغير أنفسهم واضعافها • ويظنون أنهم تورطوا فى مثل هذه المواقف ضد رغبتهم وارادتهم ، بيد أن دراسة دوافعهم الماشعورية تكشف أنهم مسوقون فعلا بأشد ميول الانسان امعانا فى اللامعقولية ، أعنى الرغبة الماشعورية فى أن يكونوا ضعفاء

عاجزين ، وهم يميلون الى تحريل مركز حياتهم الى قوى يشعرون أنهم لا يقدرّون عليها ، وبهذا يهربون من الحرية ومن المسؤولية الشخصية . وفضلا عن ذلك نجد أن هذا الميل الماسوشى يصاحبه فى العادة ميل مضاد له تماما ، هو التحكم والسيطرة على الآخرين ، وأن هذين الميلين الماسوشى والمسيطر يؤلفان جانبى التركيب ذى الطابع التسلى (١٤) ، مثل هذه الميول الماسوشية ليست دائما لا شعورية . ونحن نجدها صريحة فى الانحراف الماسوشى الجنسى حيث يكون تحقيق الرغبة فى أن يجرح الانسان ويذل هو شرط الانفعال والاشباع الجنسى . كما نجدها أيضا فى العلاقة بالزعيم والدولة فى الأديان التسلطية الدينية جميعا . فهنا تكون الغاية الظاهرة هى التنازل عن ارادة المرء ، وتجربة الانعان للزعيم أو الدولة بوصفها تجربة مجزية جزاء عيقا .

وثمة مغالطة أخرى فى التفكير اللاهوتى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمغالطة الخاصة بالاعتماد ، وأعنى بهذا الحجة القائلة بأنه لا بد من وجود قوة أو كائن خارج الانسان لأننا نجد الانسان فى شوق لا سبيل الى استئصاله الى ربط نفسه بشيء يتجاوز هذه النفس . ولا شك أن كل انسان سليم يحتاج الى ربط نفسه بالآخرين ، والشخص الذى فقد هذه القدرة فقدانا تاما انسان مجنون . فلا عجب أن خلق الانسان أشكالا خارج نفسه ليرتبط بها . أشكالا يحبها ويعزها لأنها ليست عرضة لتقلبات وتناقضات الموضوعات الانسانية ومن اليسير علينا أن نفهم لماذا كان الاله رمزا لحاجة الانسان الى الحب . ولكن هل ينتج عن وجود هذه الحاجة الانسانية وعرامتها وجود كائن خارجى يتجاوب مع هذه الحاجة ؟ من الواضح أن هذا لا يلزم عن ذاك ، كما لا يلزم عن رغبتنا القوية فى الحب وجود الشخص المحبوب . كل ما تثبته هذه الرغبة هو حاجتنا ، وربما قدرتنا .

(١٤) انظر « الهروب من الحرية » ص ١٤١ ومايليها .

وفى هذا الفصل ، حاولت تحليل مظاهر الدين المختلفة تحليلًا نفسيًا .
وكان من الممكن أن أبدأه بمناقشة مشكلة أعم هى موقف التحليل النفسى من
المذاهب الفكرية سواء أكانت دينية أم فلسفية أم سياسية . ولكنى أعتقد من
الأنفع للقارئ ، أن ينظر فى هذه المشكلة العامة الآن بعد أن سمحت مناقشة
القضايا الخاصة بتناول أكثر عينية .

من أهم كشوف التحليل النفسى تلك الكشوف المتعلقة بصحة الأفكار
والخواطر . فلقد كانت النظريات التقليدية تتخذ من أفكار الانسان عن نفسه
معطياتها الأساسية فى دراسة الانسان . وكان من المفترض أن يشعل الناس
الحروب بدافع من حرصهم على الشرف والوطنية والحرية - وهذا لأنهم
يعتقدون أنهم يصنعون ذلك . وكان من المفروض أن الآباء يعاقبون أبناءهم
بدافعهم من احساسهم بالواجب ، واهتمامهم بأبنائهم - لأنهم يعتقدون أنهم
يفعلون ذلك . وكان من المفترض أن يقتل الناس الكفرة بدافع من الرغبة
فى ارضاء الله - لأنهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك . وبالتدريج ظهر موقف جديد
من فكر الانسان كان أول تعبير عنه قول اسبينوزا : « ان ما يقوله بولس عن
بطرس يخبرنا عن بولس أكثر مما يخبرنا عن بطرس » . وبهذا الموقف ، لم يعد
اهتمامنا بقول بولس هو اهتمام بما يفكر فيه « هو » ، أعنى فى بطرس ، بل
أصبحنا نأخذ على أنه قول عن بولس . ونحن نقول اننا نعرف بولس أكثر مما
يعرف نفسه ، ونحن نستطيع أن نميط اللثام عن أفكاره لأننا لم نعد مخدوعين
بأنه ينوى الافضاء بقول عن بطرس فحسب ، نحن نستمتع « بأذن الثالثة » كما
يقول تيدور رايك Theodor Reik . وتحتهى عبارة اسبينوزا على نقطة أساسية
فى نظرية فرويد عن الانسان وهى أن قدرا كبيرا من الأمور الهامة يدور وراء
ظهر المرء ، وأن أفكار الناس الواعية ليست الا معطية « واحدة » لا تدخل فى
الموضوع بأكثر مما تدخل فيه أية معطية أخرى من معطيات السلوك ، بل انها
فى الواقع اتصالا بالموضوع فى أغلب الأحيان .

هل معنى هذه النظرية الدينامية فى الانسان أن العقل والفكر والوعى

ليست لها أية أهمية ، وأنه ينبغي تجاهلها ؟ اتجه بعض المحللين النفسانيين نتيجة لرد فعل مفهوم ضد التقدير التقليدي المغالى للفكر الواعى - اتجهوا الى التشكك فى أى نوع من المذاهب الفكرية مفسرين اياه بأنه ليس أكثر من تبرير للدوافع والرغبات ، بدلا من النظر اليه فى حدود اطاره المنطقى الخاص فيما يشير اليه - وكانوا متشككين بوجه أخص فى أنواع الأقوال الدينية والفلسفية جميعا ، وكانوا ميالين الى النظر اليها بوصفها تفكيراً تسلطياً *obsessional* لا ينبغي أن يؤخذ على محمل الجد . وينبغي أن نصف هذا الموقف بأنه خاطئ لا من وجهة نظر فلسفية فحسب ، بل من وجهة نظر التحليل النفسى ذاتها ، لأن التحليل النفسى حين فُضح تلك التبريرات ، جعل العقل الأداة التى نحقق بها مثل هذه التحليلات النقدية للتبرير .

لقد برهن التحليل النفسى على الطبيعة المبهمة لعملياتنا الفكرية والمحق ، أن قوة التبرير ، أو هذا التزييف للعقل ، هو احدى المظاهر الانسانية المحيرة أشد المحيرة . ولو لم تكن معتادين عليها هذا الاعتقاد ، لبدا لنا مجهود الانسان فى التبرير مماثلاً لمذهب شخص مصاب بجنون الاضطهاد (*paranoid*) فالشخص المصاب بهذا الجنون يمكن أن يكون غاية فى الذكاء ، ومن الممكن أن يستخدم عقله استخداما ممتازا فى جميع مجالات الحياة اللهم الا فى الجزء المنعزل الذى يتعلق به جنون فى الاضطهاد . والشخص الذى يقوم بالتبرير يفعل هذا تماما . فنحن نتحدث الى شخص ذكى من المؤمنين بستانلين ، وهذا الشخص يظهر مقدرة عظيمة فى كثير من مجالات الفكر ، ولكن ، ما أن نناقش الستالينية معه حتى يواجهنا فجأة مذهب فكرى مغلق ، وظيفته الوحيدة هى اثبات أن ولاءه للستالينية متفق مع العقل ولا يناقضه . ولهذا فسوف ينكر بعض الوقائع الواضحة ، ويشوه بعضها الآخر ، أو تراه حين يوافق على بعض الوقائع والافعال ، يشرح موقفه بأنه منطقى متسق . وسيعلم فى الوقت نفسه أن العبادة الفاشية للزعيم هى احدى السمات البغيضة جدا للنزعة

السلطوية ، وأن العبادة الستالينية للزعيم شيء مختلف تماما ، وأنها التعبير الحقيقى عن حب الشعب لستالين - فإذا قلت له ان هذا ما يدعيه النازيون أيضا ، ابتسم متسامحا لافتقارك الى الادراك ، أو اتهمك بأنك صنيعة الرأسمالية • وسيجد ألف سبب وسبب ليثبت لماذا كانت القومية الروسية ليست قومية ، ولماذا كانت النزعة السلطوية نزعة ديمقراطية ، ولماذا كانت الشجرة خطة مدبرة لتربية العناصر المعادية للمجتمع واصلاحها • والحجج المستخدمة للدفاع عن أفعال محاكم التفتيش وتفسيرها ، أو المستخدمة فى تفسير التحيزات العنصرية أو الجنسية - هذه الحجج أمثلة واضحة على هذه القدرة نفسها فى التبرير •

وتبين الدرجة التى يبلغها الانسان فى استخدام تفكيره لتبرير العواطف اللامعقولة ، وأفعال طائفته - تبين عظم المسافة التى مازال على الانسان أن يقطعها لى يصبح « انسانا عاقلا Homo sapiens • ولكن ينبغى علينا أن نتجاوز مثل هذا الوعى ، يجب علينا أن نحاول فهم أسباب هذه الظاهرة والا وقعنا فى خطأ الاعتقاد بأن استعداد الانسان للتبرير جزء من « الطبيعة الانسانية » لا سبيل الى تغييره •

والانسان فى أصله حيوان يحيا فى قطع ، وتتحدد أفعاله بدافع غريزى لاتباع الزعيم ، وبأن تكون له صلة وثيقة بالحيوانات الأخرى من حوله • وبقدر ما نكون قطيعا ، لا يهدد وجودنا خطر أعظم من فقدان هذه الصلة بالقطيع ، فنصبح معزولين • والصواب والخطأ والحق والباطل أمور يحددها القطيع • ولكننا لسنا قطيعا فحسب ، بل نحن انسانيون أيضا • نملك الوعى بأنفسنا ، ونملك العقل الذى هو بطبيعته ذاتها مستقل عن القطيع • ومن الممكن أن نتحدد أفعالنا بنتائج تفكيرنا بغض النظر عما اذا كانت الحقيقة يشارك فيها الآخرون أو لا يشاركون •

والصدع الحادث بين طبيعتنا القطيعية وطبيعتنا الانسانية هو أساس

نرغب من التوجيه : توجيه بواسطة قربنا من القطيع ، وتوجيه بواسطة العقل * والتبرير مصالحة بين طبيعتنا القطيعية وقدرتنا البشرية على التفكير . وهذه القدرة الأخيرة تدفعنا الى الاعتقاد بأن كل ما تفعله يمكن أن يصمد لاختبار العقل . وهذا ما يحدونا الى أن نضفى طابع المعقولة على أرائنا وقراراتنا اللامعقولة . ولكن من حيث انتمائنا الى قطع ، ليس العقل هو مبدئنا الحقيقي . وإنما يقودنا مبدأ مختلف تمام الاختلاف ، هو ولاؤنا للقطيع .

وازدواجية الفكر ، والثنائية القائمة بين العقل ، وبين الذهن المذى يهدف الى التبرير ، هذان هما التعبير عن الثنائية الأساسية فى الانسان ، وعن الحاجة الى تعايش القيد والحرية ، وتفتح العقل وظهوره الكامل يعتمدان على بلوغ الحرية الكاملة والاستقلال . وحتى يتحقق هذا ، يميل الانسان الى قبول الحقيقة التى تقررها الغالبية العظمى من الجماعة ، وما يصدره من أحكام تحدده حاجته الى الاتصال بالقطيع ، وخوفه من الانعزال عنه . وقليل من الافراد هم الذين يستطيعون احتمال هذا الانعزال ، وقول الحق على ما فيه من خطر فقدان الصلة بالقطيع . وهؤلاء هم الأبطال الحقيقيون للجنس البشرى ، ولولاهم لكانا الآن مازلنا نعيش فى الكهوف . أما بالنسبة للغالبية العظمى من الناس الذين ليسوا أبطالاً ، فان نمو العقل يعتمد على ظهور نظام اجتماعى يحترم فيه كل فرد احتراماً تاماً ، ودون أن يتخذ أداة تحركه الحكومة ، أو أية جماعة أخرى ، نظام اجتماعى لا يخشى فيه من توجيه النقد ، ولا يكون المسعى فيه غن الحقيقة عازلاً للانسان عن أخوانه . بل يجعله يشعر بأنه شئ واحد وإياهم . ويلزم عن هذا أن الانسان لن يبلغ القدرة التامة على الموضوعية والعقل الا اذا قام مجتمع للانسان يعلو فوق كل الانقسامات الجزئية بين الجنس البشرى ، والا اذا أصبح الولاء للجنس البشرى ومثله للعليا هو الولاء الأول فى الوجود .

وربما كانت الدراسة الدقيقة لعملية التبرير هى أهم اسهام ذى دلالة
اضافة التحليل النفسى الى التقدم البشرى . فقد فتح بعدا جديدا للحقيقة ،
وأثبت أن مجرد ايمان المرء بقول ما ايماننا مخلصا ليس كافيا للحكم باخلاصه ،
وانما بفهم العمليات اللاشعورية التى تعتمل فى داخل نفسه ، نستطيع ان
نعرف ما اذا كان يقوم بعملية تبرير ، أو أنه يقول الحقيقة (١٥) .

والتحليل النفسى لعمليات الفكر لا يهتم بتلك الأفكار التبريرية التى تنحى
الى تشويه الدافع الحقيقى أو اخفائه فحسب ، بل تعنى أيضا بتلك الأفكار
الكاذبة بمعنى آخر ، أى التى لا يكون لها الموزن ولا الدلالة التى يعزوها اليها
أصحاب تلك الأفكار . قد تكون الفكرة مجرد قوقعة خاوية ، أو مجرد رأى
يتخذه المرء لأنه النموذج الفكرى للثقافة التى يعتنقها دون عناء ، والتى يمكن
أن يتخلى عنه بلا عناء أيضا اذا تغير الرأى العام . وقد تكون الفكرة - من
ناحية أخرى - تعبيراً عن مشاعر الشخص ومعتقداته الحقيقية . وفى هذه
الحالة الأخيرة ، تضرب الفكرة بجذورها فى جماع شخصيته ، ويكون لها
« منبت عاطفى emotional matrix ومثل هذه الأفكار التى تضربها بجذورها
فى أعماق الانسان هى وحدها التى تحدد أفعال الشخص تحديدا فعلا .

وهناك احصاء حديث (١٦) يقدم لنا مثالا طيبا . فقد وجه سؤالان عن
البييض فى شمال الولايات المتحدة وجنوبها : ١ - هل خلق الناس جميعا

(١٥) ثمة سوء فهم واحد ينشأ بسهولة عند هذه النقطة وينبغى تبديده . فالحقيقة بالمعنى
الذى نتحدث به عنها هنا يشير الى مسألة ما اذا كان الدافع الذى يقدمه الشخص سببا لتصرفه
هو الدافع الحقيقى لهذا التصرف . فهو لا يشير الى حقيقة القول الذى يبرر به من حيث
كذلك ولنضرب على ذلك مثالا بسيطا نقول : لو أن شخصا يخشى مقابلة شخص آخر يخدم
سببا لعدم رغبته فى رؤية هذا الشخص بأن المطر ينهمر فى الخارج ، فهو هنا يقدم تبريرا .
والسبب الحقيقى هو خوفه لا المطر . وكلامه التبريرى أعنى سقوط المطر - قد يكون فى ذاته
قولا صحيحا .

Negro Digest, 1945.

(١٦)

متساويين ؟ ٢ - هل المزنوح على قدم المساواة مع البيض ؟ وحتى فى الجنوب
أجاب ٦١٪ على السؤال الأول بالإيجاب ، غير أن ٤٪ فقط أجابوا على السؤال
الثانى بالإيجاب (أما بالنسبة للشمال فكانت النسبتان ٧٩٪ ، ٢١٪ على
التالى) * والشخص الذى صدق على السؤال الأول فحسب قد تذكره بلا شك
على أنه فكرة تعلمها فى الفصول المدرسية وحفظها لأنها جزء من الأيديولوجية
المحترمة المعترف بها بين عامة الناس ، دون أن تمت بأية صلة لما يشعر به
الشخص حقا ، لقد كانت فى رأسه ، دون أى ارتباط بقلبه ، ومن ثم دون أدنى
قوة للتأثير على تصرفه * ويصدق هذا القول على أى عدد من الأفكار المحترمة *
وسوف يثبت أى احصاء يجرى اليوم فى الولايات المتحدة الاجماع التام تقريبا
على أن الديمقراطية هى أفضل شكل للحكومة ، بيد أن هذه النتيجة لا تثبت أن
أولئك الذين عبروا عن هذا الرأى مجتدين للديمقراطية سيحاربون من أجلها
إذا تهددها الخطر ، بل ان معظم أولئك الذين هم فى قرارة نفوسهم شخصيات
تسلطية سيعبرون عن آراء ديمقراطية مادامت الغالبية العظمى تفعل ذلك *

وتكون المفكرة قوية اذا استقر أساسها فى تركيب شخصية الفرد *
وما من فكرة يمكن أن تكون أقوى من منبتها العاطفى * وعلى هذا فان موقف
التحليل النفسى من الدين يهدف الى فهم الواقع الانسانى وراء المذاهب الفكرية *
فهو يبحث عما اذا كان المذهب الفكرى معبرا عن الشعور الذى يعرضه أم أنه
مجرد تبرير يخفى المواقف المضادة * كما أنه يسأل أيضا عما اذا كان المذهب
الفكرى ينمو من منبت عاطفى قوى أم أنه مجرد رأى فارغ *

واذا كان من اليسير نسبيا وصف المبدأ الذى يقوم عليه هذا المتناول ،
الا أن تحليل أى مذهب فكرى عسير غاية العسر * اذ ينبغى على المحلل
النفسانى - فى محاولته لتحديد الواقع الانسانى الكامن وراء المذهب الفكرى -
أن ينظر فى المقام الأول الى المذهب ككل * ذلك أن معنى أى جزء على حدة
من مذهب فلسفى أو دينى لا يمكن تحديده الا داخل السياق الكلى للمذهب *

قلو أن جزءا عزل من سياقه ، اذن لانفتح الباب لأى نوع من سوء التأويل المتعسف . ومن الأهمية بوجه خاص فى عملية فحص مذهب ما ككل ، أن ذاتقت الى أية مفارقات أو تناقضات داخل المذهب ، فهذه المفارقات والمتناقضات تشير عادة الى ضروب التعارض بين الرأى المعتنق عن وعى وبين الشعور الكامن وراءه . فأراء كالفن - مثلا فى القدر السابق predestination التى تزعم أن القرار الخاص بنجاة الانسان أو بالحكم الأبدى عليه بالعذاب قد اتخذ قبل ولادته دون أن يملك القدرة على تغيير مصيره - هذه الآراء فى تناقض صارخ مع فكرة حب الاله . وعلى المحلل النفسانى أن يدرس بناء الشخصية وخلق أولئك الذين يدعون الى مذاهب فكرية معينة ، بوصفهم أفراد وجماعات على المسواء . وسوف يبحث فى اتساق بناء الخلق مع الرأى المعلن ، كما سوف يفسر المذهب الفكرى فى حدود القوى اللاشعورية التى يمكن استنتاجها من التفاصيل الدقيقة فى السلوك المظاهر . وسيجد - على سبيل المثال - أن الطريقة التى ينظر بها الشخص الى جاره أو التى يتحدث بها الى طفل ، والطريقة التى يأكل بها ويمشى ، ويصافح ، أو الأسلوب الذى تتخذه جماعة فى سلوكها نحو الأقليات - سيجد هذا كله أكثر تعبيراً عن الايمان والحب من أى اعتقاد مقرر . وسيحاول أن يجد من دراسة المذاهب الفكرية فى ارتباطها بتركيب الخلق - اجابة على سؤالنا عما اذا كان المذهب الفكرى مجرد تبرير والى أى مدى ، وما قيمته .

واذا كان المحلل النفسانى مهتما فى المقام الأول بالواقع الانسانى الكامن وراء المعتقدات الدينية ، فسوف يجد نفس الواقع وراء مختلف الأديان ، كما سيجد مواقف انسانية متعارضة وراء الدين الواحد . فالواقع الانسانى - مثلاً - الذى يكمن وراء تعاليم بوذا أو عيسى أو المسيح أو سقراط أو اسبينوزا ، هو فى جوهره شىء واحد بعينه . ان يحدده المتطلع الى الحب والحق والعدل . وكذلك يتشابه الواقع الانسانى الكامن وراء مذهب كالفن

اللاذوقى ، والمذاهب السياسية المتسلطية • والروح التى تسرى فيها هى روح
المخضوع للقوة ، والافتقار الى الحب ، واحترام الفرد الانسانى •

وكما يكون اهتمام الأب الموعى أو الصريح بطفله تعبيراً عن الحب
أو عن رغبة فى التحكم والسيطرة ، فكذلك يمكن أن تكون العبارة الدينية
تعبيراً عن مواقف انسانية متعارضة • ونحن لا نتجاهل هذه العبارة ، ولكننا
ننظر اليها من منظور ، يكون فيه الواقع الانسانى قائماً وراءها ليزودنا ببعد
ثالث • وتحديق الكلمات التالية بوجه خاص على اخلاص مسلمة الحب !
« ويتمارها سوف تعرفها » • فاذا كانت التعاليم الدينية تسهم فى نمو المؤمنين
بها رضى قوتهم وحريرتهم وسعادتهم ، فهنا سوف نرى ثمار الحب • أما اذا
كانت تسهم فى انطواء الامكانيات الانسانية ، وفى التعتاسة ، والعقم ،
فلا يمكن أن تتولد عن الحب ، بغض النظر عما تقصد العقيدة تبليغه الى
الناس •

الفصل الرابع

المحلل النفساني بوصفه طبيباً للروح

هناك اليوم مدارس متباينة للتحليل النفسى تتراوح بين أنصار نظرية فرويد - سواء من الملتزمين حرفياً بها أو المنحرفين قليلاً عنها - وبين « المراجعين » revisionists الذين يختلفون فيما بينهم من حيث الدرجة التى ذيروا بها من تصورات فرويد (١) . وأياً كان الأمر ، فإن هذه الاختلافات تقل أهمية بالنسبة للغرض الذى نقصد اليه - من الاختلاف بين التحليل النفسى الذى يستهدف « التوافق الاجتماعى » فى المحل الأول ، والتحليل النفسى الذى يستهدف « رعاية الروح » (٢) .

وكان التحليل النفسى فى مستهل نموه فرعاً من الطب ، وكان هدفه هو علاج المرضى . وكان المرضى الذين يأتون الى المحلل النفساني يعانون من أعراض تعوق وظائف حياتهم اليومية ، وكان التعبير عن مثل هذه الأعراض يتم فى ضروب من القهر الطقوسى ritualistic compulsions والأفكار المسيطرة ، والخاوف ، والمشعور بالاضطهاد ، وهلم جرا . وكان الاختلاف الوحيد بين هؤلاء المرضى وأولئك الذين يذهبون الى طبيب عادى هو أن أعراضهم لم تكن فى الجسم ، بل فى النفس ، ومن ثم لم يكن العلاج معنياً بالظاهرة الجسمية وإنما بالظاهرة النفسية . بيد أن هدف العلاج التحليلى

(١) انظر كلارا طومسون بالاشتراك مع باتريك مولاى فى « التحليل النفسى : التطور والنمو » (دار أرميتاج ، ١٩٥٠) ، وباتريك مولاى : « أوديب - الأسطورة والعقدة » (دار أرميتاج ، ١٩٤٨)

(٢) فلنذكر هنا أن كلمة « cure » لا تقتصر على مفهوم العلاج الذى يتضمنه عادة الاستعمال الحديث للكلمة ، وإنما تستخدم بمعناها الأوسع وهو الرعاية caring for

النفسي لم يكن مختلفا عن المهدف العلاجي في الطب : وهو ازالة الاعراض .
فاذا تخلص المريض من التقيؤ أو السعال الناشئ عن سبب نفسي ، أو تخلص
من أفعاله القهرية أو أفكاره التسلطية ، عد في هذه الحالة متماثلا للشفاء .

وفي أثناء العمل ، ازداد ادراك فرويد ومعاونيه بأن العرض هو المتعبير
الظاهر الدرامي الوحيد للاختلال العصابي ، وأنه لتحقيق الشفاء الدائم ،
لا مجرد ازالة العرض ، فلا بد من تحليل شخصية المريض ومساعدته في عملية
اعادة توجيه شخصيته . وتدعم هذا التطور باتجاه جديد بين المرضى ، ذلك
أن كثيرا من الأشخاص الذين كانوا يأتون الى المحللين النفسانيين لم يكونوا
مرضى بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة ، كما لم تبد عليهم أعراض صريحة كتلك
التي ذكرناها آنفا . وكذلك لم يكونوا مجانيين ، ولم يكن أقاربهم وأصدقاؤهم
ينظرون اليهم في أغلب الأحيان على أنهم مرضى ، ومع ذلك فقد كانوا يعانون
من « مصاعب في العيش » - اذا شئنا أن نستخدم صيغة هارنى ستيك سليفان
لمشكلة المرض النفسي - وهذه المصاعب كانت تدفعهم الى طلب المعونة من محلل
نفساني . مثل هذه المصاعب في العيش لم تكن بالطبع شيئا جديدا . فقد
كان هناك دائما أناس يشعرون بعدم الاستقرار ، أو المدونية ، أناس لا يشعرون
بالسعادة في زيجاتهم ، ويصادفون الصعوبات في انجاز عملهم أو الاستمتاع
به ، ويخشون غيرهم من الناس بلا مبرر ، وأشياء من هذا القبيل . وربما
لجأوا في طلب المعونة الى قسيس أو الى صديق ، أو فيلسوف - أو ربما
« عاشوا » بمتاعبهم دون أن يبحثوا عن معونة من أى نوع خاص . وكان
الشيء الجديد هو أن فرويد ومدرسته قدما لأول مرة نظرية شاملة عن
الشخصية ، وتفسيرا للصعاب التي يلقاها الناس في حياتهم من حيث تضرب
هذه الصعوبات بجذورها في بناء الشخصية ، وأملا في التغيير . وهكذا
نقل التحليل النفسي تركيزه شيئا فشيئا من علاج « الأعراض » العصابية
الى علاج صعوبات المعيشة الضاربة بجذورها في « الخلق » العصابي .

وإذا كان من اليسير نسبيا تحديد الهدف العلاجي فى حالات « القىء
الهستيرى » أو التفكير القسلى ، فليس من اليسير تحديد ما ينبغى أن يكون
عليه الهدف العلاجي فى حالة الخلق العصابى ، بل ليس من السهل - فى
الواقع - أن نحدد ما يعانى به المريض •

وتفسر الحالة التالية ما أعنيه بهذا القول (٣) • فقد أقبل شاب فى سن
الرابعة والعشرين لرؤية محلل نفسانى ، وقال انه منذ تخرجه فى الكلية ، أى منذ
ثامنين ، شعر بالتعاسة ، وهو يعمل فى مؤسسة والده ، ولكنه لا يستمتع بالعمل ،
وتنقابه حالات من تقلب المزاج ، وكثيرا ما نشبت بينه وبين أبيه صراعات
حادة ، فضلا عن ذلك ، فانه يجد من الصعوبة بمكان اتخاذ اتفه المقرارات •
وقال ان هذا كله قد بدأ منذ أشهر قليلة قبل تخرجه فى الكلية • وكان شغوبا
بعلم الطبيعة « الفيزياء » ، وأفضى اليه أستاذه بأنه يتمتع بمواهب ملحوظة
فى الفيزياء النظرية ، فأراد أن يكمل دراسته بعد التخرج ليكرس حياته للعلم •
بيد أن أباه - وهو من رجال الأعمال الأثرياء وصاحب مصنع كبير - أصر على
أن ينزل ابنه الى ميدان العمل ، ليحمل العبء عن كاهله ، وبالتالي ليخلفه
فى هذا العمل • وكانت حجته أنه لم ينجب أبناء آخرين ، وأنه شيد المؤسسة
كلها بنفسه ، وأن الطبيب نصحه بتخفيف جهده ، وبذلك يكون الابن فى مثل
هذه الظروف جاحدا ان لم يحقق رغبة أبيه • ونتيجة لوعود الأب وتهديداته
ومناشدته لاحساسه بالوفاء - رضخ الابن ، ودخل مؤسسة أبيه • وهنا بدأت
التعاب التى وصفناها آنفا •

فما هى المشكلة فى هذه الحالة ، وما العلاج ؟ ثمة طريقتان للنظر الى

(٣) ليست هذه الحالة - وهى فى هذا مثل سائر الأمثلة المرضية الأخرى فى هذا الكتاب
- مأخوذة من مرضى ، بل من حالات يعرضها طلابى - وقد أدخلت تغييرات على التفاصيل
بحيث يستحيل معرفة أصحاب هذه الحالات •

الموقف . من الممكن أن يذهب المرء الى أن موقف الأب معقول تماما ، وأنه قد كان من الممكن أن يتبع الابن نصيحة أبيه دون عناء كبير لولا ذلك التمرد اللامعقول ، والعداء الدفين في الأعماق نحو أبيه ، ذلك أن رغبته في أن يصبح عالما في الفيزياء لا تقوم على حبه للفيزياء بقدر ما تقوم على عدائه لأبيه ، وعلى رغبته اللاشعورية في احباط خطته . ومع أنه قد رضخ لنصيحة أبيه ، إلا أنه لم يكف عن محاربته ، بل الواقع أن عداءه قد اشتد منذ استسلامه . وما يلقاه من صعوبات ناشئة عن هذا العداء الذي لم يحسم أمره . ولو أنه حسم أمره بالغوص الى أسبابه الأعمق ، لما وجد الابن أية صعوبة في اتخاذ قرارات معقولة ولاختفت متاعبه وشكوكه ، وما شاكلها .

أما إذا نظر المرء الى الموقف نظرة مختلفة ، فستجري المناقشة على هذا النحو : مع أن الأب قد يكون على حق تماما في أن يخلق ابنه بمؤسسته ، ومع أن له الحق كل الحق في التعبير عن رغباته ، إلا أن للابن حقه - بل التزامه من الوجهة الأخلاقية - في أن يفعل ما يمليه عليه ضميره واحساسه بالتكامل . فإذا أحس أن حياة عالم الفيزياء أكثر ملائمة لمواهبه وميوله ، فعليه أن يتبع هذا النداء بدلا من أن يتبع رغبات والده . هناك بالتأكيد شيء من العداء للأب ، وهو ليس عداء لا معقولا مبنيا على أسباب وهمية يمكن أن تختفى إذا خضعت للتحليل ، ولكنه عداء معقول تكون كرد فعل ضد موقف الأب التسلطي التملكي . فإذا نظرنا الى متاعب المريض من وجهة النظر هذه ، فإن المشكلة والهدف العلاجي يصبحان مختلفين تمام الاختلاف عن الصورة التي ظهرا عليها في التفسير الأول . فالعرض الآن هو عدم القدرة على تأكيد نفسه بما فيه الكفاية ، والخوف من اتباع خطته ورغباته . وهي يتماثل للشفاء حين لا يعود خائفا من الأب ، وهدف العلاج هو معالجته على اكتساب الشجاعة لتوكيد ذاته وتحريرها . وبهذه النظرة يكتشف المرء قدرا كبيرا من العداء المكبوت نحو الأب ، بيد أننا نفهم هذا العداء لا بوصفه علة

بل نتيجة للمشكلة الأساسية . ومن الواضح أن كلا التفسيرين يمكن أن يكون صحيحا ، وعلى المرء أن يحدد أيهما الأصوب فى حالة معينة بعد الاطاحة بكل تفاصيل شخصيتى المريض والأب معا . غير أن حكم المحلل النفسانى سيتأثر أيضا بفلسفته وبمذهبه فى القيم . فإذا مال المرء الى الاعتقاد بأن التكيف مع النماذج الاجتماعية هو هدف الحياة الأعلى ، وأن الاعتبارات العملية كاستمرار مؤسسة ما فى الوجود ، والحصول على دخل أكبر والاعتراف بالجميل نحو الآباء هى الاعتبارات التى تحتل مكان الصدارة ، فسيكون المرء فى هذه الحالة أكثر ميلا الى تفسير مرض الابن على أساس عداوته اللامعقولة نحو الأب . أما اذا نظر المرء - من جهة أخرى - الى تكامل الشخصية والاستقلال، وممارسة عمل له عند الشخص معنى القيم العليا ، فسوف يميل الى اعتبار عجز الابن عن توكيد نفسه وخوفه من أبيه على أنهما الصعوبتان الأساسيتان اللتان ينبغي حلها .

وهذه حالة أخرى تبين هذه النقطة نفسها . حضر كاتب موهوب الى المحلل النفسى شاكيا من ضروب من الصداع ونوبات من الدوار ، دون أن يكون لها أساس عضوى . وفقا لتقرير طبيبه . وسرد قصة حياته حتى الوقت الحالى ، وكان قد قبل منذ عامين وظيفة مرموقة من حيث الدخل والاطمئنان والمكانة الاجتماعية . فهذه الوظيفة تعد بالمعنى التقليدى نجاحا باهرا . ولكنها أرغمته من ناحية أخرى - على أن يكتب أشياء لا تتفق مع اعتقاداته ، ولا يؤمن بها . وأنفق قدرا كبيرا من الطاقة فى محاولة التوفيق بين أفعاله وبين ضميره ، وأقام عددا من التركيبات المعقدة ليثبت أن نزاهته العقلية والأخلاقية لم تمس حقا بهذا العمل الذى يمارسه . وبدأت تظهر ضروب الصداع والاحساس بالدوار . ولم يكن من العسير اكتشاف أن هذه الأعراض ما هى الا تعبير عن الصراع الذى لم يحل ، بين رغبته فى الحصول على المال والمكانة من جهة ، وبين وسائسه الأخلاقية من جهة أخرى . ولكننا اذا تساءلنا ما العنصر المرضى العصايبى فى هذا الصراع ، لوجدنا من الممكن أن ينظر اثنان من

المحللين النفسانيين الى الموقف نظرة مختلفة • فمن الممكن أن يقال ان قبول الوظيفة كان خطوة سوية تماما ، وانها كانت علامة على التكيف المصحى مع حضارتنا ، وأن القرار الذى اتخذه الكاتب كان من الممكن أن يتخذهُ أى شخص سوى حسن التكيف • والعنصر العصابى فى الموقف هو عجزه عن قبول قراره الخاص • وربما وجدنا هنا تكرارا لمشاعر ذنب قديمة تنتسب الى دافولته ، أو مشاعر بالذنب تتصل بعقدة أوديب ، والاستمناء ، والسرقه • الخ • وربما كان فيه أيضا ميل الى معاقبة الذات تجعله يشعر بعدم الارتياح فى نفس اللحظة التى يصل فيها الى النجاح • ولو اتخذ المرء وجهة النظر هذه ، كانت المشكلة التى تحتاج الى علاج هى عجزه عن تقبل قراره المصائب ، ويكون شفاؤه فى أن تتبدد وساوسه ، وفى أن يرضى عن موقفه الحالى •

وقد ينظر محلل نفسانى آخر الى الموقف نظرة مضادة تماما • وسيبدأ باقتراض أن التكامل العقلى والخلقى لا يمكن انتهاكه دون اتلاف الشخصية بأسرها • أما كون المريض يتبع نموذجا حضاريا معترفا به ، فهذا لا يغير من مبدئه الأساسى • والاختلاف الوحيد بين هذا الرجل وكثيرين غيره هو أن صوت ضميره حى بما يكفى لاحداث صراع حاد حيث لا يشعر الآخرون بهذا الصراع ، وبالتالي لا تحدث لهم مثل هذه الأعراض الظاهرة • ومن وجهة النظر هذه ستبدو المشكلة على أنها الصعوبة التى يلقاها الكاتب فى اتباع صوت ضميره ، ويكون شفاؤه هو أن يخلص نفسه من موقفه الحالى ، وأن يستأنف حياة يستطيع فيها احترام نفسه •

وهذه حالة أخرى تلقى ضوءا على المشكلة من زاوية تختلف اختلافا طفيفا • رجل أعمال نكى ، ناجح ، ذو نزعة عدوانية ، اشتد ادمانه للخمر بصورة متزايدة ، ولجأ الى محلل نفسى ليعالجه من هذا الادمان • أما حياته فمكرسة تماما للمنافسة وجمع المال ، ولا يحرص على شىء سواهما ، وعلاقاته الشخصية لا تخدم الا هذه الغاية نفسها • وهو خبير فى اكتساب الأصدقاء ،

والحصول على النفوذ ، ولكنه يبغض فى قرارة نفسه كل من يتصل بهم ، منافسيه ، وعملاءه ، وموظفيه . كما أنه يمقت أيضا السلعة التى يبيعها ، ولا يهتم بها اهتماما خاصا الا من حيث أنها وسيلة لجمع المال . وهو لا يشعر بهذا البغض ، ولكن يستطيع المرء أن يدرك ادراكا بطيئا - من أحلامه وتدايعاته الحرة أنه يشعر كأنه عبد لتجارته وسلعته ، وكل ما يتصل بها ، وهو لا يشعر بأى احترام نحو نفسه ، ولهذا يسكت ألم الشعور بالدونية والتفاهة باللجوء الى الشراب . وهو لم يقع فى غرام أحد قط ، ولهذا يشبع شهواته الجنسية فى مغامرات رخيصة لا معنى لها .

فما هى مشكلته ؟ هل هى فى ادمانه الشراب ؟ أم أن ادمانه ليس الا عرضا لمشكلته الحقيقية وهى فشله فى أن يحيا حياة ذات معنى ؟ هل يستطيع انسان أن يحيا على هذه الدرجة من الانعزال عن نفسه ، وبهذا القدر الكبير من الكراهية ، وهذا القدر الضئيل من الحب ، دون أن يشعر بالدونية ، ودون أن يصيبه الاضطراب ؟ لا شك أن هناك كثيرا من الناس يستطيعون أن يفعلوا ذلك دون أن تبدو عليهم أية أعراض ، ودون الشعور بأى خلل . وتبدأ مشاكلهم حين لا يستغرقهم العمل ، وحين يكونون على انفراد . بيد أنهم يفلحون فى استخدام أى عدد من سبل الهرب من الذات التى تتيحها حضارتنا لاسكات أى مظهر يعبر عن عدم رضاهم . أما هؤلاء الذين تبدو عليهم أعراض صريحة . فان قواهم الانسانية لم تخنق تماما . ثمة شئ يحتج فيهم ، وبالتالي يشير الى وجود صراع . وهم ليسوا أشد مرضا من أولئك الذين نجحوا فى تكييفهم تمام النجاح . بل على العكس ، انهم أكثر صحة بمعنى انساني . ومن هذا الموقف الأخير لا ننظر الى الأعراض على أنها عدو يجب أن ينهزم ، بل على النقيض من ذلك ننظر اليه بوصفه صديقا يشير الينا بأن ثمة شيئا لا يسير على ما يرام . والمريض يسعى - على نحو لا شعورى - لطريقة أكثر انسانية فى الحياة . وليست مشكلته هى ادمان الشراب ، بل الاخفاق المعنوى .

ولا يمكن أن يتم شفاؤه على أساس هذا العرض الظاهر • فلو أنه كف عن الشراب دون أن يغير شيئاً آخر في نهج حياته ، فسوف يظل قلقاً متوتراً ، وسيجد نفسه مدفوعاً إلى مزيد من التنافس النشط ، ومن المحتمل أن يظهر عليه ذات يوم عرض آخر يعبر عن عدم رضاه • وما يحتاج إليه هو شخص يستطيع أن يساعده على إمالة اللثام عن أسباب هذا التبديد لأفضل ما فيه من قوى انسانية • وبالتالي لاستعادة استخدام هذه القوى •

ها نحن نرى أنه ليس من اليسير تحديد ما نعتبره مرضاً وما نعتبره شفاء • ويتوقف الحل على ما يعتقد المرء أنه هدف التحليل النفسى • فثمة تصور يرى أن « التكيف » هو هدف العلاج التحليلى • وما يقصد بالتكيف هو قدرة الشخص على التصرف كالثالوثية العظمى من الناس فى الحضارة التى ينتمى إليها • وترى هذه النظرة أن النماذج الموجودة من السلوك التى يقبلها المجتمع والحضارة هى التى تزودنا بمعايير الصحة العقلية • وهذه المعايير لا يتم فحصها فحصاً نقدياً من وجهة نظر المعايير الانسانية الكلية ، ولكنها تعتبر بالأحرى عن نسبية اجتماعية تأخذ هذا « الصواب » على أنه شئ مفروغ منه ، وترى السلوك الذى يحيد عنها خاطئاً ، وبالتالي غير صحى • والعلاج الذى لا يستهدف شيئاً سوى التكيف الاجتماعى لا يمكنه إلا أن يخفف الألم المفرط الذى يشعر به المريض العصابى ، ليصل هذا الألم إلى المستوى المتوسط الذى يتفق مع تلك النماذج •

أما النظرة الثانية فنرى أن هدف العلاج ليس هو التكيف فى المقام الأول بل أفضل نمو لامكانيات الشخص ، وتحقيق فرديته • فهنا لا يكون المحلل النفسى « ناصحاً بالتكيف » ، بل « طبيباً للروح » ، على حد تعبير أفلاطون • وهذا الرأى يقوم على المقدمة القائلة بأن هناك قوانين ثابتة فطرت عليها الطبيعة الانسانية ، ووظيفة انسانية تعمل فى أية حضارة معينة • وهذه القوانين لا يمكن أن تنتهك دون أن تصيب الشخصية بضرر بالغ • فإذا انتهك

شخص تكامله الأخلاقى العقلى ، فانه يضعف ، بل يصيب جماع شخصيته بالشلل • وهنا يشعر بالتعاسة والألم • فاذا كانت حضارته تقبل طريقته فى الحياة ، فربما لم يكن على وعى بالألم أو ربما أحس به على أنه متعلق بأشياء منفصلة تمام الانفصال عن مشكلته الحقيقية • ولكن ، أيا كان تفكيره ، فان مشكلة الصحة العقلية لا يمكن أن تنفصل عن المشكلة الانسانية الأساسية وأعنى به مشكلة تحقيق أهداف الحياة الانسانية ، من استقلال وتكامل وقدرة على الحب •

وفى هذا التمييز بين التكيف وشفاء النفس ، وصفت « مبادئ » العلاج النفسى ، ولكننى لا أنوى التلميح الى أن المرء يستطيع أن يقوم بمثل هذا التمييز القاطع فى التطبيق • فثمة أنواع عديدة من عمليات التحليل النفسى التى يختص فيها هذان المبدآن ، فأحيانا يكون التركيز على أحدهما ، وأحيانا أخرى يكون على الآخر • ولكن من المهم أن نعرف بهذا التمييز بين المبدئين ، لأننا نستطيع عندئذ فحسب أن ندرك وزن كل منهما فى أى تحليل معين • كما لا أريد أن أوحى بأن على المرء أن يختار بين التكيف الاجتماعى أو الاهتمام بروح الانسان ، وبأن اختيار طريق التكامل الانسانى يقود حتما الى صحراء الاخفاق الاجتماعى •

والشخص « المتكيف » بالمعنى الذى استخدمته به هذه الكلمة هنا هو الشخص الذى جعل من نفسه سلعة دون أن يوجد فى حياته شئ ثابت أو محدد اللهم الا حاجته الى ارضاء الغير واستعدادة لتبادل الأدوار • ومادام ناجحا نى جهوده ، فانه يستمتع بنصيب معين من الأمان ، بيد أن خيافته للذات الأعلى ، وللقيم الانسانية ، تترك فراغا داخليا وضربا من عدم الاستقرار يتبدى حين يختل أى شئ فى معركة نجاحه • وحتى اذا لم يختل شئ ، فانه يدفع غالبا ثمنا لآخفاقه الانسانى بالقرح واضطرابات القلب ، أو بأية أنواع نفسية محددة أخرى من المرض • والشخص الذى وصل الى القوة الباطنة والتكامل

قد لا يكون ناجحا نجاح جاره المتجرد من الضمير ، ولكنه سيتمتع بالاستقرار ،
والقدرة على الحكم ، والموضوعية التى ستجعله أقل عرضة لتقلبات الحظ
وأراء الآخرين ، والتى ستعزز قدرته فى كثير من المجالات على العمل البناء •

من الواضح أن « علاج التكيف » يمكن ألا يؤدي وظيفة دينية ، هذا اذا
كنا نشير بكلمة دينية للموقف المشترك بين التعاليم الأصلية فى الديانات
الانسانية • وأريد أن أبين الآن أن التحليل النفسى بوصفه رعاية للروح يؤدي
وظيفة دينية محددة بهذا المعنى ، وإن أفضى عادة الى موقف أكثر نقدا - مع
المعقيدة الألوهية •

وحيث يحاول المرء أن يقدم صورة للموقف الانسانى الكامن وراء تفكير
لاوتسى ، وبوذا ، والأنبياء ، وسقراط ، والمسيح ، واسبينوزا ، وفلاسفة عصر
التنوير - حين يحاول هذا يصطدم بأنه على الرغم من الاختلافات ذات الدلالة
الا أن هناك جوهرًا من الأفكار والمعايير مشتركا بين تلك التعاليم جميعا •
ودون محاولة للوصول الى صياغة كاملة دقيقة ، أعتقد أن مايلى وصف
تقريبى لهذا الجوهر : على الانسان أن يكافح لمعرفة الحقيقة ، ولا يمكن أن يصل
الى انسانيته الكاملة الا بمقدار ماينجح فى هذه المهمة • ولابد أن يكون مستقلا
وحرا ، وغاية فى ذاته ، لا وسيلة لأغراض أى شخص آخر • وينبغى عليه أن
يربط نفسه باخوانه البشر مدفوعا بالحب ، فاذا لم يشعر بالحب ، كان قوقعة
خاوية حتى لو امتلك القوة كلها ، والثروة كلها ، والذكاء كله • يجب على
الانسان أن يعرف الفرق بين الخير والشر ، وعليه أن يتعلم كيف يستمع الى
صوت ضميره ، وأن يكون قادرا على اتباعه •

وتحاول الملاحظات التالية أن تبين أن هدف الرعاية التحليلية النفسية
للروح هو مساعدة المريض على بلوغ الموقف الذى وصفته توا بأنه دينى •

وفى مناقشتنا لفرويد ، أشرت الى أن معرفة « الحقيقة » هدف أساسى

لعملية التحليل النفسى • فلقد أعطى التحليل النفسى لتصور الحقيقة بعدا جديدا • وكان من الممكن للشخص فى التفكير السابق على ظهور التحليل النفسى - أن يتحدث عن الحقيقة اذا اعتقد فيما يقول • فأوضح التحليل النفسى أن الاعتقاد الذاتى ليس معيارا كافيا للاخلاص بأى حال من الأحوال • فمن الممكن أن يعتقد شخص ما أنه يتصرف مدفوعا بأحاساس العدالة ، ومع ذلك يكون مدفوعا بدافع القسوة • ومن الممكن أن يعتقد أنه مدفوع بالحب ، ويكون دسوقا - مع ذلك - برغبة ملحة الى الاعتماد الماسوشى على غيره • وقد يعتقد شخص ما أن الواجب هو مرشده ، على حين أن دافعه الرئيسى هو المغرور • والواقع أنه فى معظم التبريرات يعتقد الشخص الذى يستخدمها أنها صادقة • وهو لا يريد من الآخرين أن يؤمنوا بتبريراته فحسب ، بل انه يؤمن بها هو نفسه • وكلما أراد أن يحمى نفسه من ادراك دافعه الحقيقى ، كان ايمانه بها أشد حرارة • وفضلا عن ذلك ، يتعلم الشخص فى عملية التحليل النفسى أى أفكاره ينبع من مصدر عاطفى ، وأياها لا يخرج عن كونه اكليشييات تقليدية لا جذور لها فى بناء شخصيته ، وبالتالي لا وزن لها ولا قيمة • وعملية التحليل النفسى هى فى ذاتها بحث عن الحقيقة • وموضوع هذا البحث هو حقيقة الظواهر التى توجد داخل الانسان نفسه ، لا خارجه • وهو مبنى على المبدأ المقاتل بأنه لا يمكن تحقيق الصحة العقلية والسعادة الا بفحص تفكيرنا وشعورنا لاكتشاف ان كنا نقوم بعملية تبرير ، أم أن معتقداتنا متأصلة الجذور فى شعورنا •

وفكرة أن تقويم - الذات النقدى ، والقدرة الناجمة عن هذا التقويم على التمييز بين التجربة الصادقة والتجربة الزائفة - عنصران جوهريان فى أى موقف دينى - هذه الفكرة قد عبرت عنها تعبيراً جميلاً وثيقة دينية قديمة

ذات أصل بوذى • فنحن نجد فى تعاليم التبت عن « الجورو » Gurus تعدادا
لعشر متشابهات يمكن أن يضل فيها الانسان :

- ١ - يمكن أن نخطئ فنحسب الرغبة ايماننا •
- ٢ - يمكن أن نخطئ فنحسب الارتباط احسانا ومشاركة •
- ٣ - يمكن أن نخطئ فنحسب توقف العمليات الفكرية سكونية العقل
اللامتناهى ، التى هى الهدف الحقيقى •
- ٤ - يمكن أن تؤخذ الادراكات الحسية (أو الظواهر) خطأ على أنها تجليات
(أو لمحات) للحقيقة •
- ٥ - يمكن أن تؤخذ لمحة من الحقيقة خطأ على أنها التحقق الكامل •
- ٦ - أولئك الذين يتظاهرون بالدين دون أن يمارسونه يمكن أن يؤخذوا خطأ
على أنهم عابدون حقيقيون •
- ٧ - يمكن أن يؤخذ عبيد الشهوات خطأ على أنهم أساطين اليوجا الذين
حرروا أنفسهم من كل القوانين التقليدية •
- ٨ - الأفعال التى تؤدى لخدمة الذات يمكن أن تؤخذ خطأ على أنها أفعال
غيرية (أى تؤدىها للغير) •
- ٩ - يمكن أن تؤخذ المناهج الخادعة خطأ على أنها مناهج حريصة •
- ١٠ - يمكن أن يؤخذ المهرجون خطأ على أنهم حكماء (٤) •

Tibetan Yoga and Secret Doctrines, W.Y. Evans-Wentz (٤)
ed. (Oxford University Press, 1935), p. 77. Quoted by Fre-
deric Qtiell Spiegelberg, The Religion of No-Religion (James
Ladd Delkin, 1948), p. 52.

فمن المؤكد أن مساعدة الانسان على تمييز الحق من الباطل فى نفسه هى الهدف الأساسى للتحليل النفسى ، وهى منهج علاجى يعد تطبيقا تجريبيا لهذه العبارة : « ستجعلك الحقيقة حرا » •

وفى كل من التفكير الدينى الانسانى ، والتحليل النفسى ، تؤخذ قدرة البحث عن الحقيقة على أنها مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بالوصول الى الحرية والاستقلال •

ويقرر فرويد أن عقدة أوديب هى جوهر كل عصاب • وافترضه هو أن الطفل مقيد بالجنس المخالف له من أبويه ، وأن المرض العقلى ينشأ حين لا يستطيع الطفل التغلب على هذا التثبيت الطفولى infantile fixation وفى رأى فرويد أن الافتراض القائل بأن الدوافع الخاصة بمضاجعة المحارم لابد أن تكون متأصلة بعمق فى العاطفة الانسانية - هذا الافتراض لا مهرب منه • وقد خرج بهذا الانطباع من دراسته للمادة التى استقاها من مرضاه بيد أن شيوع تحريم مضاجعة المحارم كان دليلا اضافيا على دعواه • وأيا كان الأمر فإن الدلالة الكاملة لكشف فرويد لا يمكن أن يدرك - كما هى الحال فى أغلب الأحيان - الا اذا ترجمناها من مجال الجنس الى مجال العلاقات الشخصية المتبادلة • وجوهر مضاجعة المحارم ليس هو الاشتهاى الجنىسى لأفراد نفس الأسرة • فهذا الاشتهاى - حيثما وجدناه ، ليس الا تعبيراً واحداً عن رغبة أعمق وأشد تأصلاً فى أن يظل المرء طفلاً مرتبطاً بالأشخاص اللذين يقومون على حمايته ، وهنا تكون الأم أول من يتصل به ، وأشدهم تأثيراً عليه • ان الجنين يعيش مع الأم ومنها ، وما فعل الولادة الا خطوة واحدة فى اتجاه الحرية والاستقلال ، فمزال الطفل بعد ولادته جزءاً من الأم وشطراً منه من أوجه شتى ، ومولده بوصفه شخصاً مستقلاً عملية تستغرق أعواماً عديدة، بل تستغرق فى واقع الأمر - العمر كله • وقطع الحبل السرى لا بالمعنى الجسدى ، بل بالمعنى النفسى - هو التحدى الأكبر للنمو الانسانى ، وهو أصعب مهمة تقوم بها أيضاً • ومادام الانسان مرتبطاً بهذه الروابط الأولية بالأم

والأب والأسرة ، فانه يشعر بالحماية والأمن . فهو مازال جنينا ، لان ثمة شخصا آخر مسئولاً عنه . وهو يتجنب تلك التجربة المزعجة التي يرى فيها نفسه كيانا منفصلا يحمل على عاتقه مسئولية أفعاله الخاصة ، ومهمة اصدار أحكامه الخاصة ، أى « أن يأخذ حياته بين يديه » . وحين يظل الانسان طفلا ، فانه لا يتجنب فحسب ذلك القلق الأساسى الذى يرتبط حتماً بادراك الانسان لنفسه بوصفه كيانا مستقلا ، بل يستمتع أيضا بمشاعر الحماية والدفع ، والانتماء غير المسئول الذى كان يتمتع به وهو طفل ، ولكنه يدفع ثمنا غاليا . انه يخفق فى أن يكون انسانا كاملا ، وفى أن ينمى قوى عقله وحبه ، ويظل معولا على غيره ، ويستبقى شعورا بعدم الاستقرار ، وهذا الشعور يطل برأسه فى أية لحظة اذا تهددت تلك الروابط الأولية خطر ما . وكل مناشطه العقلية والعاطفية تتكبد مع سلطة حمايته الأولى ، ومن ثم فان معتقداته وبصائره ليست نابعة منه . وهو يستطيع أن يشعر بالعاطفة ، ولكنها عاطفة حيوانية ، انها دفع المحظيرة ، وليست حبا انسانيا يتخذ من الحرية والاستقلال شرطين له . والشخص الذى تتجه به شهوته الى مضاجعة المحارم قادر على الشعور بأنه وثيق الصلة بهؤلاء الذين يألفهم ، ولكنه عاجز عن الارتباط الحميم « بالغريب » ، أعنى بكائن انسانى آخر . وفى هذا التوجه ، لا يتم الحكم على المشاعر والأفكار فى حدود الخير والمشر ، أو الحق والباطل ، بل فى حدود المألوف وغير المألوف . وحين قال السيد المسيح : « .. فانى جئت لأفرق الانسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والمكنة ضد حمايتها (٥) » . لم يكن يقصد تعليم كراهية الوالدين ، بل أراد أن يعبر فى صيغة حاسمة لا لبس فيها عن المبدأ القائل بأنه ينبغى على الانسان أن يقطع صلة الرحم . وأن يصبح حرا ، لكى يصير انسانا .

والارتباط بالوالدين شكل من أشكال مضاجعة المحارم ، وان يكن أكثرها

(٥) انجيل متى ١٠ : ٣٥

أساسية ، والواقع أن أشكالا أخرى من الارتباط تحل محلها جزئيا خلال عملية التطور الاجتماعى . فالقبيلة والأمة ، والجنس ، والدولة ، والطبقة الاجتماعية ، والأحزاب السياسية ، وسائر الأشكال الأخرى من المؤسسات والمنظمات تصبح هى البيت والأسرة . وهنا تكمن جذور القومية والتعصب العنصرى ، وهذه بدورها أعراض على عجز الانسان عن ادراك نفسه وادراك الآخرين بوصفهم كائنات انسانية حرة . وقد يقال ان تطور البشرية هو التطور من مضاجعة المحارم الى الحرية . وفى هذا يكمن تفسير الطابع الكلى للنهى عن مضاجعة المحارم . وما كان للجنس البشرى أن يتقدم لو لم يصب حاجته الى الاتصال الوثيق فى قنوات بعيدة عن الأم والأب والأخ والاخت . ويعتمد الحب نحو الزوجة على التغلب على الاشتهاآت الحرمة ، « لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته » . بيد أن النهى عن مضاجعة المحارم يرجع الى أبعد من ذلك . فتمو العقل وجميع أحكام القيمة العقلية يتطلب أن يتغلب الانسان على التثبيت المحرم incestuons fixation وما يصاحبه من معيار للصواب والخطأ قائم على الألفة .

وكان من المستحيل أن تندمج الجماعات الصغيرة فى جماعات أكبر منها ، مع ما يترتب على ذلك من نتائج بيولوجية ، دون النهى عن مضاجعة المحارم . فلا عجب أن يصاب مثل هذا الهدف الملزم من وجهة نظر التطور الاجتماعى بهذه الفزاهى القومية الكلية . ولكن ، مع أننا قد قطعنا شوطا طويلا نحو التغلب على مضاجعة المحارم ، الا أن الجنس البشرى لم ينجح بحال من الأحوال فى القضاء عليها ، ذلك أن التجمعات التى يشعر نحوها الانسان بالارتباط المحرم قد أصبحت أكبر ، كما أصبحت منطقة الحرية أوسع ، بيد أن الوشائج التى تربط الانسان بهذه الوحدات الكبرى التى حلت محل القبيلة والأرض - هذه الوشائج مازالت قوية متينة . والمحو الكامل للتثبيت المحرم هو وحده الذى يسمح بتحقيق أخوة الانسان .

وتلخيصا لما تقدم نقول ان ما ذهب اليه فرويد من أن عقده أوديب ،
والثبوت المحرم هو « جوهر العصاب » ، من أكثر البصائر دلالة في مشكلة
الصحة العقلية ، هذا اذا حررناها من صياغتها الضيقة في حدود جنسية ،
وفهمناها في الدلالة الواسعة للعلاقات الشخصية المتبادلة * وقد أشار فرويد
نفسه الى أنه يقصد شيئا وراء الجنس (٦) * والواقع أن رأيه يناقش بأنه
ينبغي على الانسان أن يترك أباه وأمه ، وأن ينمو لمواجهة الواقع - هذا الرأي
يؤلف حجته الرئيسية ضد الدين في كتابه : « مستقبل وهم The Future
of an illusion » ، حيث يبنى نقده للدين على أساس أنه يبقى الانسان
مقيدا معتمدا على غيره ، وبهذا يمنعه من الوصول الى مهمة الوجود الانساني
العليا ، ألا وهي الحرية والاستقلال *

ومن الخطأ طبعا أن نفترض أن الملاحظات السابقة تتضمن أن
« العصابين » هم وحدهم الذين فشلوا في هذه المهمة أعني مهمة تحرير
الذات ، على حين أن الشخص المتوسط التكيف هو الذي نجح فيها * فالأمر
على النقيض ، ذلك أن الغالبية العظمى من الناس في حضارتنا متكيفون تكيفا
حسنا ، لأنهم تخلوا عن الكفاح من أجل الاستقلال بصورة أسرع وأقطع من
الشخص العصابي * فقد قبلوا حكم الغالبية قبولا تاما بحيث ونفروا على
أنفسهم ألم الصراع الحاد الذي يعانیه الشخص العصابي * ومع أنهم أصحاب
من وجهة نظر « التكيف » ، إلا أنهم أشد مرضا من الشخص العصابي من
حيث تحقيق أهدافهم بوصفهم كائنات بشرية * أيمن أن يعد الحق الذي
توصلوا اليه حلا كاملا ؟ كان من الممكن أن يكون كذلك لو أمكن تجاهل القوانين
الأساسية للوجود الانساني دون ضرر * بيد أن هذا محال * فالشخص

(٦) أشار يونج الى ضرورة مثل هذه المراجعة لتصورات فرويد في مضاجعة المحرم ،

إشارة واضحة ومقتعة في كتاباته المبكرة *

« المتكيف » الذى لا يعيش بالحقيقة ، ولا يحب ، يحمى نفسه من الصراعات المظاهرة فحسب ، فإذا لم يكن « متغرقا فى العمل ، فعليه أن يستخذ سبل المهرب العديدة التى تقدمها حضارتنا وذلك لكى يحمى نفسه من تجربة الوحدة المخيفة مع نفسه ، والنظر فى هوة عجزه واملاقه .

وقد تقدمت الاديان العظمى جميعا من الصياغة السلبية للنهى عن مضاجعة المحارم الى صيغ للحرية أكثر ايجابية . وكان لبودا نظراته النافذة الى معنى العزلة . فهو يطالب بالحاح أن يخلص الانسان نفسه من كل الروابط « المألوفة » حتى يجد نفسه ، ويجد قوته الحقيقية . وليس الدين اليهودى ، المسيحى متطرفا فى هذا المجال كالبودية ، ولكنه ليس اقل منها وضوحا . ففى أسطورة جنة عدن وصف وجود الانسان بأنه فى مأمن تام ، فهو لا يفتقر الا الى معرفة الخير والشر ، ويبدأ التاريخ البشرى بفعل العصيان الذى ارتكبه الانسان ، وهذا الفعل هو فى الوقت نفسه بداية الحرية ونمو العقل . وقد ألح التراث اليهودى ، وبخاصة التراث المسيحى على عنصر الخطيئة ، ولكنه تجاهل أن الانعتاق من طمأنينة الفردوس هو أساس للنمو الانسانى الحق . والمطالبة بقطع وشائج الدم والأرض تسرى فى تضاعيف العهد القديم كله . وقد صدر الأمر الى ابراهيم بأن يرحل عن وطنه ليصبح جواب آفاق . وتربى موسى غريبا فى بيئة غير مألوفة بعيدا عن أسرته ، بل بعيدا عن شعبه . وكان شرط رسالة اسرائيل بوصفهم شعب الله المختار هو أن يتحرروا من ارتباطهم بمصر والتشرد فى الصحراء أربعين عاما . ولكنهم بعد أن استقروا فى وطنهم ، ارتدوا الى العبادة المحرمة للأرض والأصنام والدولة . والقضية المحورية فى تعاليم الأنبياء هى محاربة العبادة المحرمة . ويبشرون - بدلا منها - بالقيم الأساسية المشتركة بين البشر كافة ، قيم الحقيقة والحب والعدل . وهم يهاجمون الدولة والقوى الدنيوية التى تفشل فى تحقيق هذه المعايير . ويجب أن تهلك الدولة اذا ارتبط بها الانسان ارتباطا يجعل من رفاهية

الدولة وسلطانها ومجدها معيارا للخير والشر . والتصور القائل بأنه ينبغي على الشعب أن يذهب الى المنفى مرة أخرى ، وألا يعود الى أرضه الا بعد أن يحقق الحرية ، ويكف عن العبادة الوثنية للأرض والدولة - هذا التصور هو الذروة المنطقية لهذا المبدأ الذى ينادى به العهد القديم ، وبخاصة التصور البعثى للأنبياء .

ولا يستطيع المرء أن يحكم على جماعته حكما نقديا الا اذا تجاوز مرحلة الوشائج المحرمة ، وقبل هذا لا يستطيع المرء أن يحكم على الاطلاق . ومعظم الجماعات - سواء أكانت قبائل بدائية ، أو أمما أو ديانات - لا تهتم الا ببقائها ، والتمسك بسلطان زعمائها ، فهي تستغل الحس الأخلاقى المتأصل فى نفوس أعضائها لتستفزهم ضد الأعداء الخارجيين الذين تحاربهم . بيد أنها تستخدم الوشائج المحرمة لتجعل الشخص مقيدا بالأغلال الأخلاقية الى جماعته ، لتخفق هذا الحس الأخلاقى والحكم ، وذلك حتى لا ينتقد جماعته على ما ترتكبه من انتهاك للمبادئ الأخلاقية ، بينما تدفعه الى المعارضة العنيفة اذا اقتترف غيرها هذا الانتهاك .

وانها للأساسة الأديان العظمى جميعا أنها تنتهك مبادئ الحرية وتفسدها فى اللحظة التى تتحول فيها الى مؤسسات جماهيرية تهيمن عليها البيروقراطية الدينية . فالمؤسسة الدينية والرجال الذين يمثلونها يأخذون - الى حد ما - مكان الأسرة والقبيلة والدولة . وهم يحتفظون بالانسان مغلولاً بدلا من أن يتركوه حرا . فلم يعد الله هو الذى يعبد ، بل الجماعة التى تدعى الكلام باسمه . حدث هذا فى جميع الأديان ، أما مؤسسو الأديان فقد قادوا الانسان خلال الصحراء بعيدا عن أغلال مصر ، على حين أن آخرين أرجعوه فيما بعد الى مصر جديدة ، وان أطلقوا عليها اسم أرض الميعاد .

والوصية القائلة : « أحبب إخاك كما تحب نفسك » هى المبدأ الأساسى المشترك فى جميع الأديان ، وان دخلت عليه تعديلات طفيفة فى التعبير . ولكن

قد يكون من الصعب حقاً أن نفهم لماذا « طلب » معلوم الجنس البشرى الروحانيين العظام - لماذا طلبوا من الإنسان أن يحب إذا كان الحب إنجازاً يسيراً كما يبدو أن معظم الناس يشعرون بذلك . فما ذلك الذى يدعى حباً ؟ الاعتماد على الغير ، الخضوع ، المعجز عن التحرك بعيداً عن « الحظيرة » المألوفة ، السيطرة ، التملك ، اشتهاى السلطة ، هذا هو ما يشعر به الناس على أنه حب ، والنهم الجنى والعجز عن احتمال الوحدة يؤخذان على أنهما دليل على قدرة عارمة على الحب . ويعتقد الناس أن حب المرء لغيره أمر بسيط ، ولكن أن يحب المرء ، قشء من أصعب الأمور . وفى اتجاهنا السوى ، يظن الناس أنهم ليسوا محبوبين لأنهم ليسوا « جذابين » بما فيه الكفاية ، والجاذبية هنا مبنية على كل شء ، من النظرات ، والملبس والذكاء ، والمال إلى المركز الاجتماعى ، والمكانة المرموقة . وهم لا يعلمون أن المشكلة الحقيقية ليس هى الصعوبة فى أن يكون المرء محبوباً ، بل صعوبة الحب نفسه ، وأن الإنسان لا يحب إلا إذا كان قادراً على أن يحب ، إذا كانت قدرته على الحب تولد حباً فى شخص آخر ، ولا يعلمون أن القدرة على الحب ، لا على بديله المزيف - هى من أصعب الانجازات .

ولا يكاد يوجد موقف يمكن أن ندرس فيه ظاهرة الحب وانحرافاتهما العديدة دراسة وثيقة دقيقة - كالمقابلة التى يجريها المحلل النفسانى مع المريض . ولا وجود لدليل أشد اقناعاً على أن وصيته « أحب جارك كما تحب نفسك » هى أهم شعار للحياة ، وأن انتهاكها هو العلة الأساسية فى الشقاء والمرضى النفسى - لا وجود لدليل أشد اقناعاً على ذلك من البيئة التى يجمعها المحلل النفسانى ، وأيا كانت شكاوى المريض العصابى ، وأيا كانت الأعراض التى تظهر عليه ، فإنها جميعاً متأصلة فى عجزه عن الحب ، هذا إذا قصدنا بالحب القدرة على تجربة الاهتمام والمسئولية واحترام شخص آخر وفهمه ، والرغبة الشديدة فى نمو هذا الشخص الآخر . وما العلاج التحليلى فى جوهره

• الا محاولة لمساعدة المريض على اكتساب أو استعادة قدرته على الحب .
• فإذا لم تتحقق هذه الغاية ، فلا يمكن أن يحدث شيء سوى تغيرات سطحية .

ويبين التحليل النفسى أيضا أن الحب بطبيعته لا يمكن أن يكون مقصورا على شخص واحد . وكل من يحب شخصا واحدا فحسب ، ولا يحب «جاره» ، يبرهن على أن حبه لشخص واحد ما هو الا ارتباط خضوع أو سيطرة ، ولكنه ليس حبا . وكذلك ، كل من يحب جاره ولا يحب نفسه يثبت أن حبه لجاره ليس صادقا . ذلك أن الحب قائم على موقف من التوكيد والاحترام ، فإذا لم يقف المرء هذا الموقف من نفسه أيضا - وهو لا يخرج عن كونه كائننا انسانيا آخر ، وجارا آخر - لم يكن له وجود على الإطلاق . والواقع الانسانى الكامن وراء تصور حب الانسان للاله فى الدين الانسانى هو قدرة الانسان على أن يحب حبا منتجا ، حبا لا يشوبه الطمع ، ولا الخضوع والسيطرة ، حبا نابعا من اكتمال شخصيته ، تماما كما أن حب الله رمز على الحب النابع من القوة لا من الضعف .

وينطوى وجود قواعد السلوك التى تحدد للانسان كيف ينبغى عليه أن يعيش - ينطوى على تصور الخروج على هذه القواعد ، أعنى تصور «الخطيئة» و «الذنب» . وما من دين الا ويعالج الخطيئة على نحو ما ، وكذلك مناهج تحديدها والتغلب عليها . وتختلف تصورات الخطيئة المتباينة بالطبع باختلاف أنماط الدين المتباينة . فمن الممكن أن تتصور الأديان البدائية الخطيئة على أنها فى جوهرها انتهاك للمحرمات ، دون أن يكون لها أى تضمين أخلاقى . أما فى الدين التسلى ، فالخطيئة هى فى المقام الأول عصيان السلطة ، ولا تكون انتهاكا للقواعد الأخلاقية الا فى المقام الثانى فحسب . وليس الضمير فى الدين الانسانى هو صوت السلطة نابعا من باطن الانسان ، بل صوت الانسان نفسه ، والحارس على تكاملنا الذى يذكرنا بأنفسنا حين يتهددنا خطر فقدان

انفسنا • وهكذا لا تكون الخطيئة موجهة ضد الاله فى المحل الأول ، بل موجهة ضد انفسنا (٧) •

ويتوقف رد الفعل ضد الخطيئة على التصور الخاص للخطيئة ومعاناتها • فادراك الانسان لخطاياه فى الموقف التسلى يكون مخيفا ، لأن معنى أن يرتكب الانسان الخطيئة هو أن يعصى السلطات القوية التى ستعاقب المخطيء • وضروب الفشل الأخلاقية ما هى الا أفعال تمرد لا يمكن التكفير عنها الا قى دلقوس جديدة من الخضوع • ورد فعل الانسان على شعوره بالذنب هو أنه مصروم لا حول له ولا قوة ، شعور بأن الانسان قذف بنفسه تماما تحت رحمة السلطة ، وبالتالي يأمل فى الغفران • والمزاج المصاحب لهذا النوع من الندم هو الخوف والقشعريرة •

والنتيجة المترتبة على هذا الندم هى أن الخاطيء - بعد أن غاص فى شعور الحرمان - يضعف من المناحية المعنوية ، ويمتلئ بالحقد والاشمئزاز من نفسه ، وبالتالي يكون ميالا الى اقتتراف الخطيئة مرة أخرى اذا اجتاز نوبة تعذيب النفس وضربها بالمسيط • ويكون رد الفعل هذا أقل تطرفا حين يقدم له دينه تكفيرا شعائريا ، أو كلمات كاهن تمسح عنه ذنبه • ولكنه يدفع لهذا التخفيف من ألم الذنب ثمنا هو اعتماده على أولئك المذنبين يملكون اغداق المصفح والغفران •

بيد أننا نجد فى الاتجاهات الانسانية من الأديان رد فعل على الخطيئة مختلفا تمام الاختلاف • فانعدام روح الحقد والتعصب ، تلك الروح التى نلمسها دائما فى المذاهب المتسلطية كتعويض عن الخضوع - يجعل النظر الى ذنب الانسان لانتهاك قواعد الحياة مفعما بالفهم والحب ، لا بالازدراء والاحتقار •

(٧) انظر المناقشة بين الضمير التسلى وبين الضمير الانسانى فى كتابى « الانسان انفسه » Man for Himself ، ص ١٤١ وما يليها •

والاحتقار • ولن يكون رد الفعل على الموعى بالذنب هو كراهية - الذات ،
وانما حافز نسط يدفع الانسان الى الاتيان بما هو أفضل • بل لقد أعتبر بعض
المتصوفة اليهود والمسيحيين أن الخطيئة شرط أساسى لتحقيق الفضيلة • وأخذوا
ينادون بأننا حين نخطئ وننظر الى الخطيئة لا فى خوف ، بل فى حرص على
خلاصنا - فى هذه الحالة فحسب يمكن أن نبلى انسانيتنا السكاملة • وفى
تفكيرهم - الذى يتركز حول توكيد قوة الانسان ، ومشابهته للاله ، وحصول
تجربة الفرحة أكثر مما يتركز حول الحزن ، يكون ادراك الخطايا هو ادراك
جماع قوى الانسان ، لا تجربة عن عجزه وقصوره •

وهناك قولان يصلحان لتوضيح هذا الموقف الانسانى من الخطيئة •
أحدهما قول السيد المسيح : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر »
•• (انجيل يوحنا ٨ : ٧) ، والمقول الثانى يميز التفكير الصوفى : « ما من
أحد يتحدث عن شر ارتكبه ويفكر فيه ، الا ويكون متفكراً فى الموضاعة التى
قارفها ، وما يفكر فيه الانسان يظل حبيساً فيه ، حبيساً فيه بكل روحه ، وهكذا
يظل الانسان حبيساً فى وضاعته • ولن يكون قادراً بالتاكيد على التحول ،
ذلك أن روحه سوف تغلظ ، وقلبه سوف يفسد ، وربما غمرته الى جانب ذلك
غاشية حزينة • فماذا أنت صانع ؟ حرك القذارة هذه الناحية أو تلك ، فأنها
ما برحت قذارة • أن نكون قد أخطأنا أو لا نكون - ما نفع ذلك لنا فى الحياة
الأخرى ؟ فى الوقت الذى أطيل التفكير فى هذا الأمر ، ربما كنت أنظم لألىء
لمسرة السماء • ولهذا كتب : « انبذ الشر ، واصنع الخير » - انصرف تماماً
عن الشر ، ولا تمنع النظر فى طريقته ، واصنع الخير • ارتكبت سيئة ؟ اذن ،
وازنها بأن تأتى حسنة » (٨) •

Isaac Meir of Ger, quoted in Time and Eternity, N.N. (٨)
Glatzer, ed. (Schocken Books, 1946), p. 111.

ولا يقل الدور الذى تؤديه مشكلة الذنب فى عملية التحليل النفسى عن الدور الذى تؤديه فى الدين . بل ان المريض يقدمها أحيانا على أنها أحد أعراضه الرئيسية . فهو يشعر بالذنب لأنه لا يحب أبويه كما ينبغي ، ولقشله فى القيام بعمله على نحو مرض ، أو لأنه جرح مشاعر شخص ما . وهذا الشعور بالذنب قد طغى على عقول بعض المرضى ، فهم يتصرفون بإحساس من الدونية ، والفسوق ، وكثيرا ما يصاحب هذا رغبة شعورية أو لا شعورية فى معاقبة النفس . وليس من العسير عادة أن نكتشف أن هذا الشعور المستبد بالذنب نابع من توجيه تسلطى . وكان من الممكن أن يمنح هؤلاء المرضى تعبيراً أصبح لشعورهم لو أنهم قالوا أنهم خائفون ، بدلا من قولهم أنهم يشعرون بالذنب - خائفون من العقاب ، أو أنهم لم يعودوا محبوبين لدى تلك السلطات التى رفعوا عليها راية العصيان ، وهذا أكثر حدوثا . وسيدرك مثل هذا المريض ادراكا بطيئا أثناء عملية التحليل النفسى أن وراء احساسهم التسلطى بالذنب ، يكمن شعور بالذنب منبثق من صوته الخاص ، من ضميره بالمعنى الانسانى ، فلنفترض أن مريضا يشعر بالذنب لأنه يحيا حياة مزدوجة ، حينئذ ستكون الخطوة الأولى فى تحليل هذا الشعور بالذنب هى اكتشاف أنه يشعر حقا بالخوف من أن يفتضح أمره ، وأن ينتقده أبواه ، أو زوجته ، أو الرأى العام ، أو الكنيسة - أو باختصار أى شخص يمثل السلطة فى نظره . وفى هذه الحالة وحدها سيكون قادرا على ادراك أن وراء هذا الشعور التسلطى ، هناك شعور آخر . وسيدرك أن « غرامياته » هى فى حقيقة الأمر تعبيرات عن خوفه من الحب ، من عجزه عن أن يحب أى شخص كائنا من كان ، أو أن يلتزم بأية علاقة حميمة مسئولة . وسيدرك أن خطيئته إنما موجهة ضد نفسه ، خطيئة تبديد قدرته على الحب .

وهناك كثير من المرضى الآخرين الذين لا يعبأون بأى شعور بالذنب على الإطلاق . وتقتصر شكاوهم على الأعراض النفسية المنشأ ، وحالات المزاج

المكتئبة ، وعدم القدرة على العمل ، أو الافتقار الى السعادة فى حياتهم الزوجية • ولكننا نجد هنا أيضا أن العملية التحليلية تكشف عن أمور مخفية بالذنب • ويتعلم المريض أن يفهم أن الأعراض العصابية ليست ظاهرة منعزلة يمكن أن نعالجها بمعزل عن المشكلات الأخلاقية • وسيصبح على وعى بضميره . وسيبدأ فى الاصغاء الى صوته •

ووظيفة المحلل النفسانى هى مساعدته فى بلوغ هذا الوعى ، ولكن لا بوصفه سلطة ، أو قاضيا له حق مطالبة المريض بتقديم حساب عن حياته ، بل انه يتحدث بوصفه شخصا طلب منه أن يهتم بمشكلات المريض ، ولا يملك من السلطة الا ما تمنحه اياه رعايته للمريض . وضميره الخاص •

فما أن يتغلب المريض على ردود فعله التسلطية على الذنب أو على اهماله القائم للمشكلة الأخلاقية ، حتى نلاحظ رد فعل جديدا يشبه الى حد كبير رد الفعل الذى وصفته بأنه مميز للتجربة الدينية الانسانية • ودور المحلل النفسانى فى هذه العملية دور محدود جدا • فهو يستطيع أن يسأل أسئلة تجعل من الأصعب على المريض أن يدافع عن وحدته باللجوء الى الاشفاق على الذات ، وبأى طريقة أخرى من طرق الهروب الكثيرة • ومن الممكن أن يكون مشجعا ، مثلما يكون حضور أى كائن انسانى متعاطف بالنسبة لاتسان يشعر بالروع ، ومن الممكن أن يساعد المريض بتوضيح بعض الصلات المعينة ، وبترجمة لغة الأحلام الرمزية الى لغة حياتنا اليقظة • بيد أن المحلل لا يستطيع – كما لا يستطيع أى شخص آخر فى هذا المجال – أن يحل محل العملية النشطة التى تدور فى نفس المريض ، من احساس وشعور ، وأن يعانى ما يجرى داخل روجه • والحق أن هذا النوع من البحث الروحى لا يتطلب المحلل النفسانى . بل يستطيع أن يقوم به أى انسان اذا كانت لديه بعض الثقة فى قواه الخاصة ، واذا كان قادرا على احتمال شيء من الألم • وكثير منا ينجحون فى الاستيقاظ فى ساعة معينة من الصباح ، اذا عقدنا عزمنا قبل أن نذهب

الى النوم على الاستيقاظ فى تلك الساعة • أما أن نوقظ أنفسنا بمعنى أن نفتح عيوننا على ما كان غامضا ، فشيء أصعب ، ولكن من الممكن أن نفعله بشرط أن نريده جادين • ولابد من توضيح شيء واحد ، وهو أنه لا وجود لوحظات يمكن أن نعثر عليها فى كتب قليلة عن الحياة الصحيحة ، أو عن الطريق الى السعادة • وأن نتعلم الاصغاء الى ضميرنا والاستجابة له لا يقودنا الى أى هدوء مهدد نظيف للعقل أو الى « سكون الروح » ، بل انه يّودى الى راحة مع الضمير ، وهذه ليست حالة سلبية من الهناء والرضى ، ولكنها حساسية مستمرة لما يعمل فى ضميرنا ، واستعداد للتجاوب معه •

حاولت أن أبين فى هذا الفصل أن علاج التحليل النفسى للروح يهدف الى مساعدة المريض فى تحقيق موقف يمكن أن يوصف بأنه دينى بالمعنى الانسانى لا بالمعنى التسلطى لهذه الكلمة • وهذا العلاج يسعى الى تمكين المريض من اكتساب ملكة رؤية الحقيقة ، والقدرة على الحب ، وعلى أن يصبح حرا ومستقلا . وحساسا لصوت ضميره • وهنا قد يتساءل القارئ : أأست أصف بهذا موقفا من الأصح أن يوصف بأنه أخلاقى أكثر من يوصف بأنه دينى ؟ أأست أتجاهل العنصر الذى يميز المجال الدينى عن المجال الأخلاقى ؟ وأنا أعتقد أن الاختلاف بين الدينى والأخلاقى اختلاف ابستمولوجى (متعلق بنظرية المعرفة) الى حد كبير ، وإن لم يكن مقصورا على هذا فحسب • فمن المؤكد ، أن هناك — على ما يبدو — عاملا مشتركا بين أنواع معينة من التجربة الدينية ، عاملا يتجاوز المجال الأخلاقى المصروف (٩) • ولكن من الصعب الى أقصى حد ،

(٩) نوع التجربة الدينية الذى أقصده فى هذه الملاحظات هو ذلك النوع المميز للتجربة الدينية الهندية ، وللتصوف المسيحى واليهودى ، ولوحدة الوجود عند اسبينورا • وأحب أن أذكر هنا أن التصوف — على خلاف ما هو شائع عند الناس من أنه نمط لا محقول من التجربة الدينية — يمثل أعلى تطور للمعقولة فى التفكير الدينى ، كما هو الحال فى الفكر الهندوسى والبوذية ، وفى الاسبينوزية • وقد عبر عن ذلك ألبرت شفيتر حين قال : « التفكير العقلى الذى يخار من الادعاءات ينتهى بالتصوف » (فلسفة الحضارة ، شركة مكملان ١٩٤٩ ، ص ٧٩) •

أن لم يكن مستحيلا ، صياغة هذا العامل من عوامل التجربة الدينية • ونحن يفهم هذه الصياغة الا أولئك الذين يكابدونها ، وهؤلاء لا يحتاجون الى أية صياغة • وهذه الصعوبة أعظم ، ولكنها لا تختلف فى نوعها عن صعوبة التعبير عن أية تجربة عاطفية فى رموز الكلمات ، وأريد أن أبذل محاولة على الأقل للإشارة الى ما أعنيه بهذه التجربة الدينية الخاصة ، وما علاقتها بعملية التليل النفسى •

من جوانب التجربة الانسانية جانب يتميز بالدهشة والانبهار والوعى بالحياة وبوجود الذات ، وبذلك المشكلة المحيرة مشكلة صلة الانسان بالعالم • فالوجود ، وجود الذات الخاص ، ووجود الغير لا يؤخذ على أنه شيء مسلم به • بل نشعر به على أنه مشكلة ، فهو ليس اجابة ، بل تساؤلا • وما قاله سقراط من أن الدهشة هى بداية كل حكمة ، قول صادق لا بالنسبة للحكمة فحسب ، بل بالنسبة للتجربة الدينية • فالشخص الذى لم يشعر قط بالدهشة ، ولم ينظر الى الحياة والى وجوده الخاص بوصفه ظاهرة تتطلب أجوبة ، ومع ذلك فان الأجوبة الوحيدة عليها هى أسئلة جديدة ، وفى هذا من المفارقة ما فيه - مثل هذا الشخص لا يستطيع أن يفهم معنى التجربة الدينية •

وثمة صفة أخرى للتجربة الدينية هو ما أطلق عليه بول تيليتش Paul Tillich اسم ، الهم الأساسى » ، وهو لا يعنى به الهم المتحمس لتحقيق رغباتنا ، بل الهم المتصل بموقف الدهشة الذى ناقشته فيما سبق : هم أساسى بمعنى الحياة ، بتحقيق الانسان لذاته ، بانجاز المهمة التى ألقتها الحياة على خواذلنا • هذا الهم الأساسى يضيف على الرغبات والأهداف جميعا من حيث أنها لا تسهم فى ارتقاء الروح وتحقيق الذات - أهمية ثانوية • والواقع أنها تصبح بلا أهمية اذا قيسَت بموضوع هذا الهم الأساسى • فهى تستبعد بالضرورة التقسيم الى مقدس ودنيوى ، وذلك لأن الدنيوى يكون خاضعا لها ، مصوغا بها •

وراء موقف الدهشة والهم ، ثمة عنصر ثالث فى التجربة الدينية ،
هو ذلك العنصر الذى يعرضه المتصوفة كأوضح ما يكون المعرض ، ويصفونه •
وهو موقف توحدى ، لا فى نفس الانسان فحسب ، ولا مع الآخرين فحسب ، بل
مع الحياة كلها ، ووراء الحياة ، مع الكون بأسره • وقد يظن البعض أن هذا
الموقف من المواقف التى تنكر فيها فردية الذات وتفرداها ، وفيها تضعف تجربة
الذات • وبطلان هذا المظن يؤلف ما تتسم به طبيعة هذا الموقف من مفارقة •
ذلك أنه يجمع فى صعيد واحد بين الادراك الحاد الأليم بالذات بوصفها كيانا
مستقلا فريدا ، وبين الشوق الى اختراق حدود الكيان الفردى ليصبح الانسان
شيئا واحدا مع « الكل » • والموقف الدينى بهذا المعنى هو أكمل تجربة للفردية
ولنقيضها فى آن واحد ، وهو ليس امتزاجا لملائين بقدر ما هو استقطاب
تنبثق التجربة الدينية عما فيه من توتر • وهو موقف يتسم بالكبرياء والتكامل،
كما يتسم فى الوقت نفسه بالتواضع الذى ينشأ عن معاناة الذات بوصفها
ليست أكثر من خيط فى نسيج الكون •

فهل لعملية التحليل النفسى أى تأثير على هذا النوع من التجربة الدينية؟

أما أن هذه العملية تفترض سلفا موقفا من الهم الأساسى ، فهذا ما أشرت
اليه آنفا • ولا يقل عن ذلك صدقا أنها تنحو الى ايقاظ احساس المريض بالدهشة
والتساؤل • فما أن يستيقظ هذا الاحساس ، حتى يعثر المريض على أجوبته
الخاصة به • فإذا لم يستيقظ هذا الاحساس ، لم يستطع المحلل النفسى أن
يقدم أية اجابة ، بل ان أفضل وأصدق اجابة ، ستكون عديمة الجدوى • وهذه
الدهشة هى أشد العوامل العلاجية دلالة فى عملية التحليل • فالمريض قد أخذ
ردود فعله ورغباته وضروب قلقه على أنها شئ مسلم به ، وفسر متاعبه على
أنها نتيجة لتصرفات الآخرين ، أو للحظ السيئ ، أو تكوينه ، أو ما شاكل

تلك • فإذا كان التحليل النفسى فعالا ، فما ذلك لأن المريض يتقبل نظريات جديدة عن أسباب شقائه ، ولكن لأنه يكتسب قدرة على الدهشة الصادقة ، فهو يبتهر باكتشاف جزء من نفسه لم يظن الى وجوده قط •

وهذه العملية فى اختراق حدود الذات العضوية ، أو الأنا ، والاتصال بالاشطر المتنائى المفكك من النفس ، أى بالاشعور - هى التى تتصل اتصالا وثيقا بالتجربة الدينية التى تحطم الفردية ، وتصل الى شعور الاتحاد بالكل • وسهما يكن من أمر ، فان تصور اللاشعور الذى استخدمه هنا ، ليس تصور فرويد أو يونج تماما •

ويرى فرويد أن اللاشعور هو فى جوهره ما فىنا من شىء سيىء ، مكبوت ، يتنافر مع مطالب حضارتنا ، ومع الأنا العليا • أما فى مذهب يونج ، فان اللاشعور يصبح مصدرا للوحى ، ورمزا لما تسميه اللغة الدينية بالاله نفسه • وفى رأيه أن كوننا خاضعين لأوامر اللاشعور ، هو فى حد ذاته ظاهرة دينية • وأنا أعتقد أن كلا هذين التصورين للاشعور تشويهان متحيزان لجانب واحد من الحقيقة • فلا شعورنا ، أعنى ذلك الجزء من أنفسنا المستبعد من الأنا العضوية التى نتعرف عليها بوصفها ذاتنا - يحتوى على الأدنى والأعلى ، على الأسوأ والأفضل • فلا ينبغى أن نقرب من اللاشعور بوصفه الها علينا أن نخشاه ، أو تنبأ علينا أن نذبحه ، بل يجب أن نقرب منه فى تواضع ، وباحساس عميق بالبهجة نرى فيه هذا الشطر الآخر من أنفسنا كما هو ، دون فزع أو رهبة ، فنحن نكتشف فى أنفسنا رغبات ومخاوف وأفكار ، ولحاحات نافذة استبعدناها من تكويننا الواعى ، ورأيناها فى الآخرين ، ولكننا لم نشاهدها فى أنفسنا • ومن الحق ، أننا نستطيع بالضرورة تحقيق جزء محدود من امكانياتنا التى تزخر بها نفوسنا • ومن المحتم علينا أن نطرح جانبا الكثير من هذه الامكانيات ، مادامنا لا نستطيع أن نعيش حياتنا القصيرة

المحدودة دون هذا الاطراح • بيد أن هناك خارج حدود الأنا الجزئية العضوية تقوم الامكانيات الانسانية كلها ، أو ان شئنا الحقيقة ، الانسانية بأسرها • وحين نتصل بهذا الجزء المفكك ، نستبقى الفردية التى يتسم بها بناء الأنا ، ولكننا نعانى هذه الأنا الفريدة المتفردة على أنها واحدة من نسخ الحياة الملامتناهية ، مثلما تكون قطرة من المحيط مختلفة عن ومتشابهة فى الوقت نفسه مع سائر القطرات الأخرى التى ليست الا حالات جزئية من نفس المحيط •

وحين يتصل الانسان بهذا العالم المفكك للاشعور يستبدل الانسان بمبدأ الكبت مبدأ التشبيع والتكامل • ذلك أن الكبت هو فعل من أفعال القوة ، من أفعال البتر ، من أفعال « القانون والنظام » • فهو يحطم الصلة بين الأنا وبين الحياة اللاعضوية التى منها انبثقت ، ويجعل من ذاتنا شيئاً مصنوعاً ، شيئاً توقف عن النمو ، فأصبح ميتاً • وحين نقضى على الكبت نسمح لأنفسنا بأدراك العملية الحية ، وبأن تؤمن بالحياة لا بالنظام •

ولا أستطيع أن أترك مناقشة الوظيفة الدينية للتحليل النفسى على هذه الحالة من النقص - دون أن أشير اشارة سريعة الى عامل آخر له دلالة العظمى • وأنا أقصد شيئاً كان فى كثير من الأحيان من أكبر الاعتراضات التى وجهت الى منهج فرويد ، وهو تكريس كل هذا الوقت والجهد لشخص واحد • واعتقد أنه لا توجد شهادة بعبقرية فرويد أعظم من نصيحته بأن يكرس الوقت المكافى حتى لو استغرق ذلك سنين عديدة لمساعدة شخص واحد على تحقيق الحرية والسعادة • وهذه الفكرة تضرب بجذورها فى روح عصر التنوير الذى توج الاتجاه الانسانى فى المدينة الغربية • بأن أكد على كرامة الفرد وتفردته على كل شيء آخر • ولكن ، أيا كان الاتفاق الوثيق بين مثل هذه الفكرة وتلك المبادئ ، فإنها مناقضة الى حد كبير للمناخ الفكرى فى عصرنا • فنحن نسيل الى التفكير فى حدود الانتاج بالجملة وأدوات الانتاج • وقد أثبت هذا التفكير

أنه منمر إلى أقصى حد طالما فكرنا فى انتاج السلع • ولكن اذا انتقلت فكرة
الانتاج بالجملة وعبادة الآلة الى مشكلة الانسان والى ميدان الطب النفسى ، فانها
تحدثم الأساس الذى يجعل من انتاج مزيد من الأشياء بصورة أفضل - أمرا
جديرا بالجهد والعناء •

الفصل الخامس

هل التحليل النفسى تهديد للدين ؟

حاولت أن أبين أننا بقدر ما نفرق بين الدين التسلطى والدين الانسانى ،
وبقدر ما نميز بين « النصيح بالتكيف » و « رعاية الروح » - بقدر ما نفعل
ذلك نستطيع أن نحاول الاجابة على هذا السؤال • بيد أننى أهملت حتى الآن
مناقشة الجوانب المتباينة للدين ، تلك الجوانب التى ينبغى تمييزها بعضها
عن البعض الآخر لنحدد تلك الجوانب التى يهددها التحليل النفسى وغيره
عوامل الحضارة الحديثة ، وما لا تخضع لهذا التهديد • والجوانب الخاصة
التي أود مناقشتها من وجهة النظر هذه هى الجانب التجريبي ، والجانب العلمى
السحرى Scientific-magical والجانب الشعائرى ، والجانب الذى
يتعلق بدلالات الالفاظ وتطورها (semantic-aspect)

وأقصد بالجانب التجريبي العاطفة الدينية والعبادة • فالموقف المشترك
بين تعاليم مؤسسى الأديان الشرقية والغربية الكبرى هو الموقف الذى لا يخرج
فيه الهدف الأسمى من الحياة عن الاهتمام بروح الانسان وإتاحة الفرصة
لإظهار قدراته على الحب والتفكير • ويستطيع التحليل النفسى الذى هو أبعد
عن أن يكون تهديدا لهذا الهدف - أن يسهم - على العكس من ذلك - بنصيب
كبير فى تحقيقه • كما لا يمكن أن يتهدد هذا الجانب أى علم آخر • فلا سبيل
الى تصور أن أى كشف تصل اليه العلوم الطبيعية - يمكن أن يصبح تهديدا
للشعور الدينى • بل على العكس ، كل مزيد من الوعى بطبيعة الكون الذى
نعيش فيه لا يمكن الا أن يساعد الانسان على أن يصبح أشد ثقة بنفسه ، وأكثر
تواضعا • أما فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية ، فإن فهمها المتزايد بطبيعة الانسان

وبالقوانين التي تحكم وجوده - هذا الفهم أحرى بأن يسهم فى نمو الموقف
الدينى لافى تهديده .

ولا يكمن الخطر الذى يتهدد المدين فى العلم بل فى التصرفات المسائدة
فى الحياة اليومية . فهنا كف الانسان عن البحث داخل نفسه عن الغرض
الاسمى من الحياة ، وجعل نفسه أداة تخدم الآلة الاقتصادية التى صنعتها
يداه . فهو معنى بالكفاءة والنجاح أكثر من عنايته بسعادته ونماء روحه .
ولعل أخطر توجيه يهدد الموقف الدينى على الأخص هو ما أسميته « التوجيه
السوقى » marketing orientation للانسان الحديث (١) .

ولم يرسى التوجيه السوقى دوره المسائد بوصفه نموذجاً للمخلق الا فى
المعصر الحديث . ففى شخصية السوق تظهر كل المهن والموظائف والأوضاع .
وعلى صاحب العمل والموظف ، والمشتغل بالقطعة ، أن يعتمد فى نجاحه المادى
على القبول الشخصى لدى هؤلاء الذين يقيدون من خدماته .

وهنا لا تكون قيمة « الاستعمال » use value كما هى الحال فى
« سوق السلع - كافية لتحديد قيمة « الاستبدال » exchange value
ذلك أن « عامل الشخصية » يحتل مركز الأولوية على المهارات فى تقدير قيمة
السوق ، ويلعب فى أغلب الأحيان الدور الحاسم ، وإذا كان من الحق أن
أكثر الشخصيات ربما لا يمكن أن تكون خالية تمام الخلو من المهارة - فمن
المؤكد أن نظامنا الاقتصادى لا يمكن أن يعمل على مثل هذا الأساس - إذ من
النادر أن تكون المهارة والنزاهة وحدهما هما أس النجاح . ويتم التعبير
عن صيغ النجاح بعبارات كهذه : « يبيع نفسه » ، « يعرض شخصيته »
و « المتانة » و « الطموح » ، « المرح » ، « العدوانية » وهلم جرا ، وهى عبارات
محبوبة على لفافة الشخصية للفائزة بالجوائز . أما بعض المعنويات الأخرى

(١) انظر الفصل الذى كتبه عن التوحيد السوقى فى كتاب « الانسان لنفسه » .

سالأصل العائلى ، أو النوادى ، والاتصالات والنفوذ ، فهى أيضا رغائب هامة ، وسيعلمن عنها - وان يكن ذلك بصورة مأكرة - على أنها المقومات الأساسية للسلعة المعروضة . والانتماء الى دين وممارسته أمر ينظر اليه أيضا الى حد بعيد - على أنه أحد مقتضيات النجاح . ولكل مهنة ، ولكل ميدان ، نمط الشخصية الناجحة . فالوكيل المتجول ، والصراف ، ورئيس العمال ، وكبير السقاة تتوفر فيهم المتطلبات ، كل على نحو مختلف ، وبدرجة مختلفة ، بيد أن أدوارهم متماثلة ، فهم قد أدركوا الشرط الجوهري : أن يكونوا مطلوبين .

ومن المحتم أن يتكيف موقف الانسان من نفسه بهذه المعايير للنجاح . وشعوره بتقديره ذاته لا يقوم أساسا على قيمة قدراته ، واستغلاله لها فى مجتمع معين ، بل يتوقف على قابليته للبيع أو للزواج فى السوق ، أو على رأى الآخرين فى « جاذبيته » . فهنا يخبر نفسه بوصفه سلعة مقصودا بها أن تجتذب الناس بأفضل الأسعار وأغلاها . وكلما ارتفع الثمن المعروض ، كان تأكيد القيمة أعظم . والانسان - السلعة يعرض بطاقة هويته مفعما بالأمل ، ويحاول أن يبرز من مجموعة السلع على منضدة العرض ، وأن يكون جديرا بأعلى بطاقة سعر ، ولكن اذا لم يعره أحد التفاتا ، على حين يختطف الآخرون ، اقتنع بدونيته وتفاوته . وأيضا كانت مرتبته العالية من حيث المميزات الانسانية والنفع ، فقد يوصم بأنه سئ الحظ - وعليه أن يتحمل اللوم على ذلك - فى كونه غير مناسب للعصر .

فلقد لقن منذ الطفولة المبكرة أنه لى يكون مناسباً للعصر عليه أن يكون مطلوبا ، كما ينبغي عليه أن يتكيف هو أيضا مع شخصية السوق . بيد أن الفضائل التى تعلمها من طموح وحساسية وقدرة على الكيف مع مطالب الآخرين - صفات أعم من أن تقدم نماذج للنجاح ، ولهذا فإنه يتحول الى القصص الشائعة ، والى الصحف ، والى الأفلام السينمائية بحثا عن صور أشد خصوصية تروى قصة النجاح ، وهنا يجد فى السوق أنكى النماذج وأجدها الخليفة بالمحاكاة .

فلا غرابة إذن فى مثل هذه الظروف أن يتأثر احساس الانسان بقيمته .
تأثرا شديدا ، فها هو يجد أن شروط احترامه لنفسه تند عن سيطرته • فهو
معتمد على الآخرين فى الموافقة على سلوكه ، وهو فى حاجة مستمرة الى
هذه الموافقة ، ومن ثم كان العجز وعدم الاستقرار من النتائج المحتومة •
فالانسان يفقد هويته فى توجيه السوق ، ويصبح مغتريا عن نفسه •

فاذا كانت القيمة العليا للانسان هى النجاح ، واذا كان الحب والحق
والعدل والحنان والرحمة لا نفع لها عنده ، فربما « أقر » بهذه المثل العليا ،
ولكن دون أن « يسعى » اليها • وربما اعتقد أنه يعبد اله الحب ، ولكنه يعبد
فى الحقيقة صنما هو تجسيد مثالى لأهدافه الحقيقية ، أعنى تلك الأهداف
التأصلة فى توجيه السوق • وربما تقبل هذا الموقف أولئك المهتمون ببقاء
الدين وبقاء الكنائس • وربما بحث الانسان عن حصى الكنيسة والدين لأن
فراغه الباطنى يدفع الى البحث عن ملأ • بيد أن اعتناق الدين لا يعنى أن
يكون المرء متدينا •

أما أولئك المعنيون بالتجربة الدينية – سواء أكانوا من رجال الدين أم
لم يكونوا – فلن يبتهجوا لدى رؤيتهم الكنائس مزدحمة بالتائبين • وانما
سيكونون أقسى نقاد لتصرفاتنا الدنيوية ، وسيعلمون أن اقتراب الانسان
عن نفسه ، ولا مبالاته بنفسه وبالأخرين ، تلك الآفات المتأصلة فى حضارتنا
الدنيوية بأسرها – هى الأخطار الحقيقية للموقف الدينى ، لا علم النفس ،
أو أى علم آخر •

ويختلف عن هذا اختلافا كبيرا تأثير التقدم العلمى على جانب آخر من
الدين هو جانبه العلمى – السحرى (scientific-magical)

فلقد كان الانسان فى محاولاته المبكرة للبقاء – معوقا بقصور فهمه لقوى
الطبيعة ، ويعجزه النسبى عن استخدامها على حد سواء • فكان أن صاغ
نظريات عن الطبيعة ، واصطنع شعائر معينة للتغلب عليها أصبحت جزءا

من دينه • وأنا أطلق على هذا الجانب من الدين اسم الجانب العلمى -
السحرى لأنه اقتسم مع العلم وظيفة فهم الطبيعة من أجل تطوير التقنيات
لتطويعها تطويعا ناجحا • ويقدر ما بقيت معرفة الانسان بالطبيعة وقدرته
على السيطرة عليها فى حالة ضئيلة من النمو ، كان هذا الجانب من الدين
بالضرورة شطرا هاما جدا فى تفكيره • فاذا أصابته الدهشة من حركة
الكواكب ، ونمو الأشجار ، وحدث الفيضانات والبرق والزلازل ، استطاع
أن يضع افتراضات تفسر هذه الحوادث متمثلا بتجربته الانسانية • وافترض
أن ثمة آلهة وشياطين وراء هذه الأحداث ، مثلما أدرك فى الحوادث التى
تتبارأ على حياته تحكمات ومؤثرات العلاقات الانسانية • وعندما كانت القوى
المنتجة التى ينبغى على الانسان أن ينشئها فى الزراعة وصناعة السلع -
لم تتطور بعد ، كان عليه أن يصلى للآلهة طلبا للمعونة • فاذا احتاج الى المطر ،
أقام الصلاة من أجله ، واذا أراد محاصيل أفضل قدم الصلاة للآلهة الخصوبة
واذا خشى الفيضانات والزلازل ، صلى للآلهة التى يعتقد أنها مسئولة عن هذه
الأحداث • ومن الممكن - فى الواقع - أن نستخلص من تاريخ الدين مستوى
العلم والتطور التقنى التى تم الوصول اليه فى مختلف المراحل التاريخية •
فلقد اتجه الانسان الى الآلهة لاشباع تلك الحاجات العملية التى لم يكن
يستطيع أن يوفرها لنفسه ، أما الحاجات التى لم يكن يصلى من أجلها فكان
فى مقدوره اشباعها • وكلما ازداد الانسان فهما للطبيعة وسيطرة عليها ،
كأن أقل احتياجا لاستخدام الدين كتفسير علمى ، وكوسيلة سحرية للسيطرة
على الطبيعة • فاذا استطاعت البشرية أن تنتج من الطعام ما يكفى الناس
جميعا ، لم تعد فى حاجة الى الصلاة من أجل الخبز اليومى ، فذلك شئ
يستطيع الانسان أن يوفره بجهوده الخاصة • وكلما قطع التقدم العلمى
والتقنى الشواطىء الى الأمام ، كانت الحاجة أقل الى تكليف الدين بمهمة
ليست دينية الا فى حدود تاريخية ، لا فى حدود التجربة الدينية • وقد جعل
الدين الغربى هذا الجانب العلمى - السحرى جزءا أصيلا فى عقيدته ، وهكذا

وضع نفسه فى معارضة التطور التقدمى للمعرفة الانسانية . ولا يصدق هذا القول على اديان الشرق الكبرى . فان لديها دائما ميلا للتفرقة بحددة بين ذلك الجزء من الدين الذى يتناول الانسان ، وبين تلك الجوانب التى تحاول تفسير الطبيعة . فالاسئلة التى اثارَت مجادلات عنيفة فى الغرب ودفعت الى ضروب من الاضطهاد مثل مشكلة هل العالم متناهى أم لا متناهى ، هل الكون ازلى أم لا ، وغير ذلك من المشاكل المشابهة - هذه الاسئلة قد عالجتها الهندوكية والبوذية فى فكاهة رقيقة وسخرية . وحين كان تلاميذ بوذا يسألونه عن أمثل هذه المسائل كان يجيب دائما وأبدا : « أنا لا أعرف ، ولا يهمنى أن أعرف ، لأنه أيا كانت الاجابة فانها لا تسهم فى المشكلة الوحيدة ذات الأهمية : كيف نخفف العذاب الانسانى » . ويعبر أحد أناشيد المريجفيدا عن هذه الروح أجمل تعبير : « من الذى يعلم حقا ، ومن يستطيع ان يعلن هنا متى ولد الخلق ، ومتى جاء ؟ »

الآلهة متأخرون عن خلق هذا العالم .

من يعلم اذن متى أتى الى الوجود ؟ هو ، الأصل الأول للخلق ، هل هو الذى صاغه جميعا أم لم يصغه ، ذلك الذى تشرف عينه على هذا العالم من السماء الأعلى ، هو الذى يعلم حقا ، أو ربما لم يكن يعرف (٢) .

ومع التطور الهائل فى التفكير العلمى ، وتقدم الصناعة والزراعة ، كان من المحتم أن تزداد حدة الصراع بين المقررات العلمية للدين وبين العلم الحديث . ولم تكن معظم الحجج المناهضة للدين فى عصر التنوير موجهة ضد الموقف الدينى بل ضد ما يزعمه الدين من أن أقواله العلمية ينبغى أن تؤخذ مأخذ الايمان . وقد قام المتدينون وطوائف من رجال العلم على السواء فى

*The Hymns of the Rigveda, Ralph T.H. Griffith, trans. (٢)
(E.J. Lazarus and Company, 1897), II, 576.

السنوات الأخيرة بمحاولات عديدة لاثبات أن النزاع بين الآراء الدينية وبين الآراء التي توحى بها أحدث التطورات فى العلوم الطبيعية قد خفت حدته عما كان مفروضا أن يكونه منذ خمسين عاما مضت . وعرض قدر كبير من المعطيات التي تؤيد هذه الدعوى . غير أننى أعتقد أن هذه الحجج لا تنصب على القضية الأساسية . فحتى لو قال المرء أن النظرة اليهودية المسيحية عن أصل المكون نظرة خليقة بالدفاع عنها كأي فرض علمي آخر ، فإن هذه الحجة تتناول الجانب العلمي للدين لا الجانب الديني الصرف . فإذا أجاب شخص ما بأن المهم هو نجاة روح الانسان وأن الفروض المتعلقة بالطبيعة وخلقها لا تدخل فى هذه المشكلة ، كانت هذه الاجابة صادقة صدقها حين قررها الفيدا أو بوذا .

ولقد أهملت فى مناقشتنا التي دارت فى الفصول السابقة الجانب الشعائري من الدين ، مع أن الشعائر من أهم العناصر فى كل دين . وقد أعطى المحللون النفسانيون انتباهها خاصا للطقوس لأن ملاحظاتهم للمرضى بدت وكأنما تعد باستبصارات جديدة فى طبيعة أشكالها الدينية . إذ وجدوا أن أنماطا معينة من المرضى يمارسون طقوسا ذات طبيعة خاصة لا تمت بصلة الى تفكيرهم أو الى سلوكهم الديني ، ومع ذلك تبدو مشابهة للأشكال الدينية تشابها وثيقا . ومن الممكن أن يثبت البحث التحليلي النفسى أن السلوك القسرى المطقوسى يأتى نتيجة لمؤثرات شديدة لا تتضح بذاتها للمريض ، ولكنه يتغلب عليها - من وراء ظهره - على هيئة ذلك الطقس . وفى حالة خاصة من حالات الاغتسال القهرى يكتشف المرء أن طقس الاغتسال ما هو الا محاولة للتخلص من شعور عارم بالذنب . وهذا الشعور بالذنب لا يتسبب عن أى شيء ارتكبه المريض فعلا ، بل يأتى نتيجة لدوافع هدامة لا يشعر بها . وطقس الاغتسال يبطل باستمرار فعل الهدم الذى دبره لا شعوريا ، والذى ينبغى ألا يصل أبدا الى مستوى الشعور . فهو يحتاج الى طقس الاغتسال هذا لكي يتغلب على شعوره بالذنب . فما أن يدرك وجود الدافع الهدام ، حتى يستطيع أن يتصدى له

مباشرة ، وعن طريق فهم مصدر روحه التدميرية يستطيع أن يخفف منها لتصل الى درجة محتملة على أقل تقدير . وللطقس القسرى وظيفة مزدوجة ، فهو يحمى المريض من شعوره الذى لا يحتمل بالذنب ، كما أنه يميل الى استمرار هذه الدوافع لأنه لا يتصدى لها الا عن طريق غير مباشر .

فلا عجب أن صدم أولئك المحللون النفسانيون الذين صرفوا اهتمامهم للطقوس الدينية بالتماثل القائم بين الطقوس القسرية الخاصة التى لاحظوها فى مرضاهم ، وبين الاختلافات ذات النمط الاجتماعى التى وجدها فى الدين . وكانوا يتوقعون أن يجدوا أن الطقوس الدينية تتبع نفس الميكانيزم الذى تتبعه ضروب القسر العصابية neurotic compulsions . وبحثوا عن الحوافز المباشرة ، مثل الحقد التدميرى لشخصية الأب كما تتمثل فى الاله ، وكانوا يشعرون أن هذا الحقد لابد أن يتم التعبير عنه فى الطقس مباشرة أو تلميحاً . ولا شك أن المحللين النفسيين فى تعقبهم لهذا السبيل قد توصلوا الى كشف هام عن طبيعة كثير من الطقوس الدينية ، وإن لم يصيبوا دائماً كبد الحقيقة فى تفسيراتهم الخاصة . بيد أن انشغالهم بالظواهر المرضية جعلهم يفشلون فى كثير من الأحيان فى رؤية أن الطقوس ليست بالضرورة من نفس الطبيعة اللامعقولة التى نجدها فى القهر العصابى . فنراهم لم يميزوا بين هذه الطقوس اللامعقولة القائمة على كبت الدوافع اللامعقولة ، وبين الطقوس المعقولة rational rituals التى تختلف فى طبيعتها عن الطقوس الأولى تمام الاختلاف .

ولسنا فى حاجة الى اطار للتوجيه يضفى شيئاً من المعنى على وجودنا ، ونستطيع أن نشارك فيه اخواننا البشر فحسب ، بل نحن فى حاجة أيضاً الى التعبير عن ولائنا لقيم سائدة « بأفعال » يشارك فيها الآخرون . والطقس - بمعناه الواسع - هو الفعل المشترك المعبر عن تطلعات مشتركة متأصلة فى قيم مشتركة .

والطقس المعقول يختلف عن الطقس اللامعقول من حيث وظيفته فى المقام

الأول ، فها هو لا « يدفع أذى » الدوافع المكبوتة ، بل « يعبر » عن تطلعات يعتقد المفرد أنها ذات قيمة • وبالتالي فأنها لا تملك صفة التساوية القهرية التي تميز الطقس اللامعقول ، فلو حدث أن هذا الطقس الأخير لم يمارس مرة واحدة ، هدد الدافع المكبوت بالظهور ، ومن ثم فإن كل انقطاع يصاحبه قلق ملحوظ • ولا ترتبط مثل هذه النتائج بأي انقطاع في أداء الطقس المعقول ، قد يكون ثمة أسف على عدم الممارسة ، ولكنها ليست شيئا يبعث على الخوف • فالواقع أن المرء يستطيع أن يتعرف دائما على الطقس اللامعقول من درجة الخوف الناشئة عن انتهاكه على أي نحو من الإساءة •

ومن الأمثلة البسيطة على طقوسنا الدينية المعقولة المعاصرة عاداتنا التي درجنا عليها في تحية شخص آخر ، أو في تكريم فنان بالتصفيق ، أو في إظهار احترامنا لميت (٣) ، وغيرها كثير •

وليست الطقوس الدينية لا معقولة دائما بحال من الأحوال • (هي تبدو دائما لا معقولة – بالطبع – للملاحظ الذي لا يفهم معناها) • فمن الممكن أن يفهم الطقس الديني للاغتسال على أنه ذو معنى ، وعلى أنه تعبير عقلي عن نظافة داخلية غير مصحوبة بأي عنصر تسلطى أو لا معقول ، وعلى أنه تعبير رمزى عن رغبتنا في الطهارة الداخلية التي نمارسها كطقس استعدادا لنشاط يتطلب التركيز التام والتكريس • وعلى هذا النحو أيضا ، فإن طقوسنا كالصوم ، واحتفالات الزواج الدينية ، وممارسة التركيز والتأمل ، مثل هذه الطقوس يمكن أن تكون طقوسا معقولة تماما ، دون حاجة إلى التحليل ، باستثناء التحليل الذي يؤدي إلى فهم معناها المقصود •

(٣) هذه الطقوس ليست بالضرورة معقولة بالدرجة التي تظهرها بها هذه المناقشة • فمثلا ، الطقوس المتعلقة بالوفاة ، يمكن أن نجد مركبا من العناصر لا المكبوتة ألا معقولة – قل هذا أو أكثر – الدافعة إلى أداء هذا الطقس ، ومنها على سبيل المثال التعويض المأذون عن الحد للعداء المكبوت الذي نضمره لشخص ميت ، ورد الفعل ضد الخوف الشديد من الموت ، والمحاولات السحرية التي يبذلها المرء لحماية نفسه من هذا الخطر •

وكما أن اللغة الرمزية التى نجدها فى الأحلام وفى الأساطير عبارة عن شكل خاص للتعبير عن الأفكار والمشاعر بصور مستمدة من التجربة الحسية ، فبتلك يمكن أن نعد الطقوس تعبيراً رمزياً عن أفكار والمشاعر باتخاذ « الفعل » وسيلة لهذا التعبير .

والإسهام الذى يستطيع التحليل النفسى أن يتقدم به لفهم الطقوس هو فى بيان الجذور النفسية للحاجة الى الفعل الطقوسى ، وفى التفرقة بين الطقوس الفهرية اللامعقولة ، وبين الطقوس التى هى تعبيرات عن ولاء مشترك لمثلنا العليا .

فما هو الموقف الخالى فيما يتعلق بالجانب الشعائرى من الأديان ؟ ان الشخص المتدين يشارك فى طقوس كنيسة مختلفة ، وليس من شك أن هذه السمة هى أكثر الأسباب دلالة للحضور الى الكنيسة . ولأن الانسان الحديث لا تتاح له سوى فرصة ضئيلة جداً لمشاركة الآخرين فى أفعال العبادة ، فان أى شكل من أشكال الطقوس له جاذبية هائلة حتى ولو كان منفصلاً تماماً الانفصال عن مشاعر الانسان اليومية وتطلعاته التى لها أعظم الدلالة .

وهذه الحاجة الى طقوس مشتركة يقدرها زعماء النظم السياسية التسلطية حق قدرها ، فهم يقدمون أشكالاً جديدة للاحتفالات ذات اللون السياسى تشبع هذه الحاجة ، وترتبط بها المواطن العادى بالعقيدة السياسية الجديدة . ولا يمارس الانسان الحديث فى الحضارات الديمقراطية كثيراً من الطقوس الحافلة بالمعنى ، فلا عجب إذن أن اتخذت الحاجة الى ممارسة الطقوس شتى الأشكال المتباينة . فالطقوس المعقدة فى المحافل الماسونية ، والطقوس المتصلة بالتبجيل الوطنى للدولة ، والطقوس المعنية بالسلوك المذهب ، وكثيراً غيرهما - ليست الا تعبيراً عن هذه الحاجة للفعل المشترك ، ولكنها كثيراً ما تكشف عن املاق الهدق الذى تتجه اليه العبادة ، وعن الانفصال عن المثل العليا التى يعترف بها كل من السدين والأخلاق . والجاذبية التى

تتمتع بها المنظمات الداعية الى الاخاء ، كالانشغال بالسلوك السليم فى كتب
« الاتيكيت » - تعطى دليلا مقنعا على حاجة الانسان الحديث الى الطقوس ،
والى ما تتسم به الطقوس التى يؤديها من خواء .

ولا سبيل الى انكار الحاجة الى الطقوس ، ومع ذلك لا تلقى ما تستحقه
من تقدير بين الجميع ، وقد يبدو أننا أمام أحد هذه الأمور الثلاثة : اما ان
نصبح متدينين ، أو أن نغمس فى ممارسة طقوس خالية من المعنى ، أو أن
نعيش دون أى اشباع لهذه الحاجة . ولو كان من اليسير أن نصطنع الطقوس .
فلربما خلقت طقوس انسانية جديدة . قام بمثل هذه المحاولة المتحدثون باسم
دين العقل فى القرن الثامن عشر ، كما أقدم عليها الكويكرز فى طقوسهم
العقلانية الانسانية ، وجربتها طوائف انسانية صغيرة . بيد أنه من المحال
تصنيع الطقوس . ذلك أنها تعتمد على المشاركة الحقيقية فى قيم مشتركة ،
وبالدرجة التى تندمج فيها تلك القيم فتصبح جزءا من الواقع الانسانى - يمكن
أن نتوقع ظهور طقوس معقولة ذات معنى .

وحين ناقشنا معنى الطقوس ، لمسنا الجانب الرابع من الدين وأعنى به
جانب « دلالة الألفاظ وتطورها » semantic . فالدين فى تعاليمه وطقوسه
يتحدث بلغة تختلف عن اللغة التى نستعملها فى الحياة اليومية ، أعنى أنه
يتحدث بلغة رمزية . وجوهر اللغة « الرمزية » هو أن التجارب الباطنة ،
تجارب الفكر والشعور ، يتم التعبير عنها وكأنها تجارب حسية . وكلنا
« نتحدث » هذه اللغة ، على الأقل ونحن نأتمين . بيد أن لغة الأحلام لا تختلف
عن اللغة التى نستخدمها فى الأساطير وفى التفكير الدينى . فاللغة الرمزية
هى اللغة العالمية الوحيدة التى عرفها الجنس البشرى ، انها اللغة التى
استخدمتها الأساطير منذ خمسة آلاف عام ، وهى اللغة المستخدمة فى أحلام
المعاصرين . وهى نفس اللغة فى الهند والصين ، وفى نيويورك وباريس (٤) .

(٤) أثبت هذا الرأى اثباتا جميلا جوزيف كامبل Joseph Campbell فى كتابه
القيم : « البطل ذو الألف وجه » (مؤسسة بولنجن ، ١٩٤٩) .

وفى المجتمعات التى كان همها الأول فهم التجارب الباطنة ، لم تكن هذه اللغة هى لغة الكلام فحسب ، بل كانت مفهومة أيضا • ومع أنها مازالت اللغة التى تتحدث بها الأحلام فى حضارتنا - إلا أنها لا تفهم الا فيما ندر • ويتألف سوء الفهم هذا أساسا فى النظر الى مضامين اللغة الرمزية على أنها حوادث واقعية فى عالم الأشياء بدلا من اعتبارها تعبيراً رمزياً عن تجربة الروح • وعلى أساس من سوء الفهم هذا ، أخذت الأحلام على أنها تهويلات لا معنى لها أنتجها الخيال ، وأخذت الأساطير على أنها تصورات طفولية للواقع •

وكان فرويد هو الذى جعل هذه اللغة المنسية ميسرة لنا • وبجهوده فى فهم لغة الأحلام فتح الطريق خصائص اللغة الرمزية ، وبين تركيبها ومعناها ، وبرهن فى الوقت نفسه على أن لغة الأساطير الدينية لا تختلف فى جوهرها عن لغة الأحلام ، وأنها تعبير له معناه عن تجارب ذات دلالة • وإذا كان من الحق أن تفسيره للأحلام والأساطير قد ضاق بمغالاته فى دلالة الحافز الجنى ، إلا أنه أرسى مع ذلك الأسس لفهم جديد للرموز الدينية فى الأسطورة والعقيدة ، والطقس • وهذا الفهم للغة الرموز لا يؤدي الى رجوع للدين ، وإنما يؤدي الى تقويم جديد للحكمة العميقة الدالة التى يعبر عنها الدين فى لغته الرمزية •

تبين الاعتبارات السابقة أن الاجابة على ما يشكل تهديدا للدين فى يومنا هذا تتوقف على الجانب الخاص من الدين الذى أشرنا اليه • والموضوع الكامن وراء الفصول المتقدمة هو الاعتقاد بأن مشكلة الدين ليست هى مشكلة الاله ، وإنما مشكلة الانسان ، وما الصيغ الدينية والرموز الدينية سوى محاولات للتعبير عن ضروب معينة من الخبرة الانسانية • والمهم هو طبيعة هذه الخبرات • وما نسق الرموز سوى المفتاح الذى نستطيع منه استخلاص الواقع الانسان الكامن وراءها ، وسوء الحظ ، اهتمت المناقشة التى تركزت حول الدين منذ عصر التنوير بتأكيد الاعتقاد فى الاله أو انكاره بدلا من الاهتمام بتأكيد بعض المواقف الانسانية أو انكارها • وكان السؤال : « هل تؤمن بوجود

الاله ؟ » هو السؤال الحاسم فى أفواه المتدينين ، وكان انكار الاله هو الموقف الذى اختاره أولئك الذين حاربوا الكنيسة • ومن اليسير أن نرى أن كثيرين ممن يعلنون ايمانهم بالله هم فى موقفهم الانسانى عبدة أصنام ، أو أناس بلا ايمان ، على حين أن بعض « الملحدین » المتحمسين ممن يكرسون حياتهم لاصلاح حال البشرية ، ولأعمال الاخاء والحب ، يتخذون موقفا دينيا عميقا يتسم بالايمان • وهكذا ، فان تركيز المناقشة الدينية على قبول رمز الاله أو انكاره يسد الطريق على فهم المشكلة الدينية بوصفها مشكلة دينية ، ويحول دون تنمية ذلك الموقف الانسانى الذى يمكن أن نسميه موقفا دينيا بالمعنى الانسانى لهذه الكلمة •

وقد بذلت محاولات عديدة للاحتفاظ برمز الاله ، ولكن باعطائه معنى مختلف عن معناه فى التراث التوحيدي monotheistic • ومن الأمثلة البارزة على هذا لاهوت اسبينوزا • فهو باستخدامه لغة لاهوتية صارمة ، يضع تعريفا للاله مؤداه فى نهاية الأمر أنه لا وجود لاله بالمعنى الذى يذهب اليه التراث اليهودى - المسيحى • فقد كان مايزال قريبا من الجو الروحى الذى يبدو فيه رمز الاله أمرا لا غنى عنه ، بحيث لم يدرك أنه ينفى وجود الاله فى حدود تعريفه الجديد •

ويستطيع المرء أن يلمس محاولات مشابهة للاحتفاظ بكلمة الاله فى كتابات عدد من اللاهوتيين والفلاسفة فى القرن التاسع عشر والقرن الحالى ، ولكن مع اعطائها معنى يختلف اختلافا أساسيا عن المعنى الذى فهمه أنبياء العهد المقدس أو رجال اللاهوت اليهود والمسيحيون فى العصر الوسيط • ولا حاجة الى العراك مع أولئك الذين يحتفظون برمز الاله ، وان يكن من المشكوك فيه أنها محاولة مصطنعة للاحتفاظ برمز دلالة تاريخية فى جوهرها • والصراع الحقيقى ليس بين الاعتقاد فى الله وبين « اللحاد » ، بل بين موقف انسانى دينى وبين موقف هو الوثنية سواء ، بغض النظر عن كيفية التعبير عن هذا الموقف ، أو كيفية تمويهه - فى الفكر الواعى •

وحتى من وجهة النظر التوحيدية المصرف ، يشكل استخدام كلمة « الاله » مشكلة . فالكتاب المقدس يصر على ألا يحاول الإنسان أن يصنع صورة للاله فى أى شكل . ولا شك أن أحد جوانب هذه الوصية نوع من التحريم الذى يحافظ على هيبة الاله . وثمة جانب آخر وهو فكرة أن الاله رمز لكل ما فى الانسان ، ومع ذلك فهو ما ليس عليه الانسان ، انه رمز لواقع روحى نستطيع أن نسعى لتحقيقه فى أنفسنا ، ومع ذلك لا نستطيع أن نصفه أبدا ، أو نضع له تعريفا . فالاله أشبه بالأفق الذى يقيم الحدود لرؤيتنا . وقد يبدو للعقل الساذج شيئا حقيقيا يمكن الإمساك به ، بيد أن الجرى وراء الأفق هو جرى وراء سراب . فعندما نتحرك ، يتحرك الأفق ، وحين نتسلق كثيبا منخفضا ، يتسع الأفق ، ولكنه يظل حدا ، ولا يصبح أبدا « شيئا » يمكن أن نمسك به . وفكرة أن الاله لا يمكن تعريفه تعبر عنها تعبيراً واضحاً القصة الواردة فى الكتاب المقدس عن الوحى الذى أوحى به الاله لموسى . فموسى الذى عهد اليه بأن يخاطب بنى اسرائيل ، وأن يقودهم من حياة الأسر الى الحرية ، ومع معرفته بروح العبودية والوثنية التى عاشوا فيها ، قال لله : ها أنا أتى الى بنى اسرائيل وأقول لهم : اله آبائكم أرسلنى اليكم . فاذا قالوا لى ما اسمه فماذا أقول لهم . فقال الله لموسى أهيه الذى أهيه I Am that I Am « وقال : « هكذا تقول لبنى اسرائيل أهيه I AM أرسلنى اليكم » (٥) .

ويزداد معنى هذه الكلمات وضوحا اذا أمعنا النظر فى النص العبرى ، فعبارة « أهيه الذى أهيه » (ehje asher ehje) يمكن أن تترجم ترجمة أصح فى صيغة الفعل المستخدمة فى الأصل « I am being that I am being » فقد مأل موسى الله عن اسمه لأن الاسم شىء يمكن للانسان أن يدركه وأن يعبدده . والله خلال قصة الخروج كلها قد تنازل بدافع من الحب للحالة الفعلية الوثنية التى كان عليها بنو اسرائيل ، وكذلك يتنازل أيضا حين يخبر موسى

(٥) سفر الخروج ٣ : ١٣ - ١٤ .

باسمه • ولكن ثمة سخرية عميقة فى هذا الاسم • فهو يعبر عن كونه مختلفا
عن أن يكون شيئا متناهايا يمكن تسميته كما تسمى الأشياء • وكان من الممكن
أن ينقل النص نقلا دقيقا لو ترجم على هذا النحو : « اسمى هو اللا مسمى »
«My name is Nameless»

ونحن نجد فى تطور اللاهوت المسيحى واليهودى محاولات متكررة
للوصول الى تصور أنقى للاله وذلك بتجنب أية شائبة من الموصف الايجابى
أو تعريف الله (أفلوطين ، ابن ميمون) • وكما يقول المصوفى الألمانى الكبير
مايستر اكهارت : « ما يقول عنه الانسان انه الله ، ليس هو الله ، وما لا يقوله
المرء عنه ، فانه أصدق مما يثبتته عنه » (٦) •

فاذا مضينا فى وجهة النظر التوحيدية الى نتائجها المنطقية لم يكن من
الممكن قيام جدل حول طبيعة الاله ، وما من إنسان يمكن أن يدعى أية معرفة
بالله تؤهله لنقد الآخرين أو ادانتهم ، أو الزعم بأن فكرته عن الله هى الفكرة
الوحيدة الصحيحة • وقد كان للمتعبص الدينى الذى تتسم به الأديان الغربية ،
والذى ينبثق من مثل هذه المزاعم ، وينبع من الافتقار الى الايمان أو الافتقار
الى الحب - اذا تحدثنا من وجهة النظر النفسانية - كان لهذا التعصب اثر
مدمر على المتطور الدينى - فقد أدى الى شكل جديد من أشكال الوثنية ، إذ
أقيمت صورة للاله - لا من الخشب أو الحجارة ، بل من الكلمات ، ليعبدها
الناس فى هذا المحراب • وهذا الانحراف عن التوحيد ، انتقده اشعياء بهذه
الكلمات :

« يقولون لماذا صمنا ولم تنظر • نلنا أنفسنا ولم تلاحظ • ها انكم فى يوم
صومكم توجدون مسرة ، وبكل أشغالكم تسخرون •

LIBRARY ALEXANDRIA

مكتبة الاسكندرية
Fr. Pfeiffer, Meister Eckhart (1857).

(٦)

« ها انكم للخصومة والنزاع تصومون ، ولتضربوا بكلمة الشر : لستم تصومون كما اليوم لتسميع صوتكم فى العلاء •

« أمثل هذا يكون صوم اختاره • يوما يذل الانسان فيه نفسه ، يحنى كالأسلة رأسه ويفرش تحته مسحا ورمادا ؟ هل تسمى هذا صوما ويوما مقبولا للرب ؟

« أليس هذا صوما اختاره ؟ حل قيود الشر ، فك عقد النير ، واطلاق المسحوقين أحرارا وقطع كل نير ؟

« أليس أن تكسر للجائع خبزك ، وأن تدخل المساكين التائهين الى بيتك ؟ اذا رأيت عريانا أن تكسوه ، وأن لا تتغاضى عن لحمك ؟

« حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك ، وتنبت صحتك سريعا ، ويسير برك أمامك ، ومجد الرب يجمع ساقتك » (٧) •

والعهد القديم ، وخاصة القسم الخاص بالأنبياء ، معنى بالجانب السلبي ، أى محاربة الوثنية ، قدر عنايته بالجانب الايجابى ، وهو الاعتراف بالله • فهل لانزال « نحن » معنيين بمشكلة الوثنية ؟ نحن لا نبدى مثل هذا الاهتمام الا اذا وجدنا بعض « البدائيين » عاكفين على عبادة أصنام من الخشب والحجارة • فنحن نتصور أنفسنا أسمى كثيرا عن مثل هذه العبادة ، وأننا حللنا مشكلة الوثنية لأننا لا نرى أنفسنا عابدين لأى رمز تقليدى من رموز الوثنية ، ونسى أن جوهر الوثنية لا يكون فى عبادة هذا الصنم أو ذاك ولكنه موقف انسانى معين • ويمكن أن يوصف هذا الموقف بأنه تأليه للأشياء ، أو لمظاهر جزئية من العالم ، وبأنه خضوع الانسان لمثل هذه الأشياء ، فى مقابل موقف يكرس فيه الانسان حياته لتحقيق اسمى مبادئ الحياة ، مثل الحب

والعقل ، مستهدفاً أن يصبح ما هو بالقوة (أو الامكان) أعنى كائناً خلق
مشابهاً للاله • فليست التماثيل المصنوعة من الخشب والحجارة هي وحدها
الأصنام • الكلمات يمكن أن تصبح أصناماً ، والآلات يمكن أن تصبح أصناماً ،
والزعماء ، والدولة ، والسلطان ، والجماعات السياسية يمكن أن تكون ذلك •
بل ان العلم ورأى الناس يمكن أن يصبحوا أصناماً ، والاله نفسه أصبح وثناً
بالنسبة للكثيرين •

وإذا لم يكن من الممكن للإنسان أن يصدر أقوالاً صحيحة عن الإيجابى ،
عن الاله ، فانه من الممكن أن يصدر مثل هذه الأقوال عن السلبى ، عن
الأصنام • ألم يحن الوقت للكف عن الجدل حول الاله ، والاتحاد - بدلا من
ذلك - فى اماطة اللثام عن أشكال الوثنية المعاصرة • فاليوم لم يعد « بعل »
و « عشتروت » هما اللذان يهددان أثمن ممتلكات الانسان الروحية ، وانما
تأليه الدولة والقوة فى البلاد التسلطية ، وتأليه الآلة والنجاح فى حضارتنا •
وسواء كنا متدينين أم لم تكن ، وسواء اعتقدنا فى ضرورة قيام دين جديد ،
أم فى دين بغير دين ، أم فى استمرار التراث اليهودى - المسيحى فاننا بقدر
اهتمامنا بالجواهر لا بالأصداف الخارجية ، وبالتجربة لا بالكلمة ، وبالانسان ،
لا بالكنيسة ، نستطيع أن نتحد فى استنكار حازم للوثنية ، وربما وجدنا فى
هذا الاستنكار من الايمان المشترك ما يزيد على أية أقوال ايجابية عن الاله •
ولكننا سنجد بالتأكيد مزيداً من التواضع والحب الأخوى •

الفهرس

صفحة

تصديق ٣

الفصل الأول :

المشكلة ٧

الفصل الثاني :

فرويد ويونج ١٥

الفصل الثالث :

تحليل لانمط من الخبرة الدينية ٢٥

الفصل الرابع :

المحلل النفساني بوصفه طبيبا للروح ٦١

الفصل الخامس :

هل التحليل النفسي تهديد للدين ٩٠

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧/٢٨٠٦
الترقيم الدولى ٠ - ٧٩ - ٧٠٧٥ - ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاطوغلى - القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩

الناشر
مكتبة غريب

٣١ شارع كامل صدق (البحالة)

الثمان ٤٥ قرشا

Bibliotheca Alexandrina



0387458

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاطوغلى - القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩